رواية

نورا ناجي

بيت الجاز

مكتبة

دار الشروق

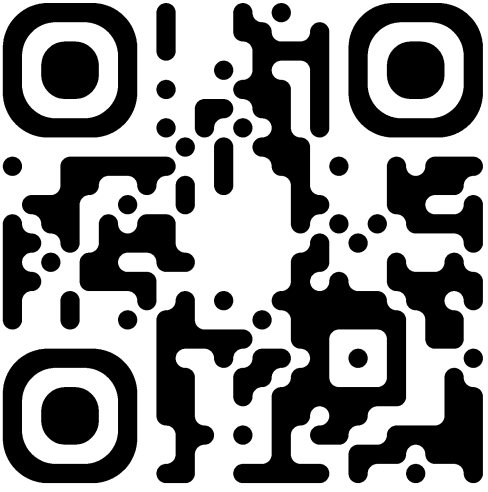

سجل في مكتبة
اضغط الصفحة
SCAN QR

بيت الجاز

بيت الجاز

نورا ناجي

الطبعــة الأولى ٢٠٢٥

تصنيف الكتاب: أدب / رواية

تصميم الغلاف: عبد الرحمن الصواف

تصحيح لغوي: السيد عبد المعطي

رقــم الإيداع ٣١٣٥٠/ ٢٠٢٤

ISBN 978-977-09-3944-4

دار الشروق

٧ شــارع سيبويــه المصــري

مدينة نصر ـ القاهرة ـ مصر

/dar.elshorouk /Darelshorouk

ناجي، نورا،

بيت الجاز / نورا ناجي

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٢٤

٢٠٤ ص، ٢٠سم

تدمك ٩٧٨٩٧٧٠٩٣٩٤٤

رقم الإيداع ٣١٣٥٠/ ٢٠٢٤

١ - القصص العربية أ. العنوان ٨١٣

مكتبة

t.me/soramnqraa

نورا ناجي

مكتبة
t.me/soramnqraa

بيت الجاز

دار الشروق

إهداء

إلى أمي..

وإلى فاتيما

الكاتبة

ظلت هذه الأقصوصة من صفحة الحوادث ماثلة أمام عينَي رضوى ثلاثة عشر عامًا..

كانت في الثلاثين عندما قرأتها لأول مرة.. الناس مشغولون في متابعة ميدان التحرير، الإنترنت منقطع والهواتف لا تعمل، لا شيء سوى البث المباشر على القنوات التلفزيونية، وهي جالسة على الأريكة تقرأ الجرائد وتدخن..

لم تفهم تمامًا ما يدور أمامها على الشاشة، تنظر بنصف عين، أحيانًا ما تنتبه إذا جذب قلبها صوت أو مشهد، مثل مقطع لا تنساه لرجل بسيط يصيح بالإنجليزية «نزلت وتركت أطفالي الجوعى في البيت، نزلت لأموت اليوم». فكرت في هذا الرجل كثيرًا، لأنه وبعد سنوات، ستختصر جملته داخل عقلها كل ما حدث وكل ما يحدث. لكن بشكل عام، لم تشعر بشيء ولم تتوقع شيئًا.

كل تركيزها على هذا الخبر في الجريدة. خبر يمنحها المزيد من المعلومات عن مقطع فيديو انتشر قبل انقطاع الإنترنت.

فيديو ـ صوره شخص ما تصادف وجوده أمام المستشفى الجامعي تلك الليلة ـ لطفل يسقط من الشباك على رأس رجل. طفل لا يزال كتلة لزجة متغضنة الملامح، بحبل سُري لم يقطع، سقط وكأنه ألقي به من السماء، لم يمس الأرض، لأنه هوى على رأس رجل يجلس في انتظار امرأته التي تصرخ في نفس اللحظة من آلام المخاض. الصدمة التي بدت على وجه الرجل بدت تلخيصًا لكل شيء، بالتأكيد تساءل، ما الذي سقط عليه؟ كيس قمامة؟ قالب طوب؟ علبة مياه غازية؟ أو ربما توهم للحظة أنه أصيب بخرطوش طائش مثل الشباب الذين يسقطون كل يوم في ميدان التحرير والشوارع المحيطة، لكن طنطا بعيدة عن كل ذلك، باستثناء بعض المناوشات أمام مبنى المحافظة، وبضع قنابل غاز أطلقت لتفرقة المتجمهرين في شارع البحر، لم تختلف الحياة كثيرًا، الناس هم الناس، المحلات، مراكز التجميل، العيادات، مراكز الدروس الخصوصية، أتوبيسات النقل العام، أسواق الخضار، محطة القطار، المقاهي، كل شيء على حاله، الحياة كما هي، باردة، ومعتادة، وقاسية. لا شيء يحدث في تلك المدينة..

لا شيء سوى سقوط طفل على رأس رجل..

حمل الرجل الجسد الصغير المرتجف وركض نحو مبنى الطوارئ، في الفيديو ـ الذي شاهدته رضوى عشرات المرات ـ علا صوته وهو يسبُّ الجميع، الناس والعالم والثورة والحياة والكفرة

والمؤمنين، سب كل شيء أدى في النهاية إلى سقوط طفل من شباك مبنى الولادة في المستشفى الجامعي، سب الأطباء والممرضات والأمهات والآباء وأولاد الحرام والزانيات، وكل من وقف يشاهده وهو يركض حاملًا رضيعًا يرتجف بحبل سُري أزرق.

أين ذهب هذا الرجل؟ تسأل رضوى نفسها، وهي جالسة خلف مكتبها، تتأمل الأقصوصة التي تحتفظ بها داخل كتاب ظل دومًا على مقربة منها. قرأت أنه أصيب بارتجاج خفيف في المخ، وأنه بقي تحت الملاحظة لبعض الوقت قبل أن ينصرف مع زوجته ورضيعه. أما الصبي، فأودع في ملجأ الأيتام في طنطا. ولم تفلح الشرطة في العثور على مرتكبات الواقعة إلى يومنا هذا. لم يعرف أحد لماذا ألقته النسوة الثلاث من شباك حمَّام المستشفى، ولماذا كل تلك المشقة، أن تذهب امرأة لتلد في حمَّام مستشفى بدلًا من البقاء في البيت، ثم يُلقى بطفلها إلى الشارع، بدلًا من وضعه بجوار جامع أو ملجأ؟ ما القطعة الناقصة؟ ولماذا فشلت رضوى في معرفة الحقيقة كل تلك السنوات؟

ستتمنى رضوى كل يوم كتابة تلك الحكاية..

ستضع عشرات الأفكار، وستسوِّد عشرات المسودات، وستكتب آلاف الكلمات ثم تحذفها. ستتجاهلها، وستكتب روايات أخرى، وقصصًا أخرى وكتبًا أخرى، ومقالات ونصوصًا وخواطر وقصائد، لكنها لن تنساها أبدًا.

إنها روايتها الأخيرة، تعرف.. ستكتبها قرب النهاية، عندما تجلس خلف مكتبها ذات ليلة، وقد انتهت الحكايات من مخها. ستكتب ما تريد أن تقوله، وستكشف أمام نفسها سر تشبثها بهذه الواقعة بالذات، دونًا عن كل الأقاصيص التي احتفظت بها من صفحات الحوادث. كل الحكايات التي أصابتها بالقشعريرة، كل القسوة التي أدهشتها. وكل المشاعر المعقدة. ستستدعي أيضًا حوادث أخرى، لكن الأهم. أنها ستتذكر..

مكتبة
t.me/soramnqraa

الرواية

ستتذكر يُمنى تلك اللحظة إلى الأبد. أو ربما التذكر ليس الفعل المناسب، لأنها حاضرة أمام عينيها طوال الوقت. تراها مثل طبقة شفافة تغلف كل شيء، وجه طفلتها، وجدران العيادة الخارجية لمستشفى الجذام. ووجوه المرضى التي تحولت إلى ما يشبه جذوع الشجر، وفوق الشجر نفسه الذي يصطف أمام سور المستشفى وحول المقابر المجاورة، وعلى الطريق الترابي، وفوق عباءات النساء المتشحات بالسواد، الذاهبات لزيارة قبور لا تحوي شيئًا مما يعتقدنه، لا روح ولا جسد. مجرد حفر تحت الأرض، أو غرف ضيقة مغلقة فوقها. تتذكرها وهي جالسة في حمَّام العيادة، تتأمل الخطين الداكنين في اختبار الحمل المنزلي دون أن تشعر بشيء.

ربما لأن هذه اللحظة هي الشيء الوحيد الحقيقي في حياتها، هي الحقيقة والجميع متخيلون. لحظة ما ابتسمت مرمر لها وهي تشتعل. سكبت صفيحة الجاز فوق رأسها ثم أشعلت الثقاب.

بدت النار وهي تمسك بجلبابها وطرحتها المفكوكة وشعرها الأسود، مثل هالة باردة، زرقاء وليست برتقالية كما تراها في موقد البوتاجاز أو ولاعة أبيها وهو يشعل سجائره. نار واثقة، تعرف بالضبط ما تريده مشعلتها، أن تلتهمها بسرعة وهدوء حتى تتلاشى.

وقفت مرمر فوق سطح بيت الجاز، البيت الذي يكشف كل شيء يحدث داخله، بحجراته المكشوفة مثل بيوت الدمى التي تتمنى يُمنى لو امتلكت مثلها. كانت في العاشرة، عندما وقفت في شرفة بيتها تراقب الناس الذين يعيشون أمامها، دون أن يعوا بأن حياتهم يجب أن تكون مقدسة، أن تكون سرية أو خفية، حيواتهم عارية للجيران والعابرين والطيور والحيوانات. هذا البيت الذي لا يفارقها، البيت الطوبي بأدواره الأربعة، وشرفاته المفتوحة، ودرجات سلمه التي لا يحدُّها سور، وقصصه وأساطيره، هو ما عرَّفها ماهية الحياة، وكيف يمكن أن يكون الإنسان هشًّا، مجرد طيف يعيش الحياة وكأنه يتمسح بها، مثل مرضاها اليوم في المستشفى، يعيشون بأطراف متساقطة وجلود متغضنة وأيدٍ بلا أصابع، تبدو كفروع شجرة لا تثمر، ومثل كل هؤلاء الراقدين تحت قبورهم، مجرد أسماء مكتوبة بخط جميل فوق أضرحة. أسماء قصيرة وطويلة وتواريخ ميلاد وموت، ماذا يعني كل ذلك؟ ماذا تعني حياة إنسان اختزلت بين تاريخين؟ وماذا يعني قبر لا يضم سوى تراب، يحوله الناس إلى بيت ومأوى، ويزورونه

واضعين عليه الورود الرخيصة بلا رائحة، التي يشترونها من البائعة الثرثارة على الناصية؟ كل الحياة وكل الموت هو تلك اللحظة، التي اشتعلت فيها مرمر من أسفل إلى أعلى، وعندما توهجت النار حول رأسها، وعندما ابتسمت. ابتسمت لها بالذات، لم يكن ثمَّة شخص سواها، وحمامتان حائرتان تقفان فوق هوائي الجيران، وصوت غليظ لرجل يتحدث وكأنه يعلن بيانًا ما، بدا منبعثًا من تليفزيون بعيد، وصوت نهنهة امرأة قادم من نقطة خلف أذنها. لم تضطرب الحمامتان، بدتا وكأنهما اعتادتا ذلك، أن تشعل امرأة النار في جسدها، ثم تقفز.

لم تقفز فورًا كما تحكي النساء عنها في أحاديثهن الليلية أمام عتبات بيوتهن. توقفت لحظات وكأنها تمتص النار، ثم أدارت رأسها نحو يُمنى؛ البنت الصغيرة التي تقف في شرفة بيتها، تحاول التمسك بالسور الطوبي المترب أو تختفي خلفه اتقاءً للحرارة التي هبت نحوها. المسافة بين البيوت في تلك الأزقة الضيقة لا تتجاوز المترين، والنار التي تلف مرمر، بدت وكأنها ستمتصها. ربما تمنت يُمنى لو امتصتها.

حل الصمت فجأة على المكان، فابتسمت مرمر، ثم رمت نفسها من السطح، لم تصرخ يُمنى، لم تنطق ولم تركض أو تهرع لإخبار أمها بما حدث، ظلت واقفة بينما يلتف الناس حول الجلباب المشتعل.

مرمر كانت بداخله، رأتها وهي تشتعل، وهي تبتسم، وهي تقفز. لكنها بعد أن قفزت، لم تعد هنا. تلاشت تاركة جلبابًا محترقًا، أطفأه الناس بأوشحتهم الخشنة وستراتهم الخفيفة، ثم خرجت أم مرمر وعمتها وأعمامها وأبناء أعمامها من البيت المنكشف، ليحملوا الجلباب بأعين جامدة. وبعد ساعات أعلنوا أن مرمر ماتت.

لماذا خيِّل لها أن الجلباب يطير فارغًا، وأن مرمر تلاشت داخله؟ لم يصدقها أحد عندما صاحت بأن مرمر لم تهوِ إلى الأرض، لم تمس الأرض، رأتها ترتفع أمامها إلى السماء، توقفت أمام يُمنى للحظة، وهي ثابتة مكانها في الشرفة، ومستها فشعرت بسخونة النار تلهب خدها، ثم تلاشت. حكت ما حدث لأمها الباكية فلم تعلق، لم تكذبها لكنها لم تفسر لها ما حدث، اكتفت بمعانقتها دون أن تتوقف عن النشيج.

قالوا ماتت في سريرها، ولم يسمحوا لأحد بتفحص الجسد، هل استخرجوا لها شهادة وفاة أصلًا؟ هؤلاء الناس لا يحتاجون إلى أوراق إثبات لا للحياة ولا للموت، لأنهم لا يريدون من الحياة شيئًا، سوى أن يجدوا ما يسد رمقهم، يأكلون ويشربون ويتناسلون ويدخنون الحشيش ليلًا ويضحكون وينكحون زوجاتهم أو أي أنثى عابرة. يتشاجرون ويسبون الدين ويقتلون أحيانًا، ثم يملأون قاطرة الجاز من الصفائح المتراكمة في حوش البيت

وعلى السطح، ويربطون الحصان الهزيل إليها، ويختارون واحدًا منهم للذهاب، لتوزيع الجاز على المطاحن والمخابز والورش ومصانع بئر السلم والبقالات الصغيرة. لا يعرفون من الروائح سوى رائحة الجاز القاسية، ولا يعرفون من الحياة سوى تطايرها. أما الموت فلا شيء، مجرد تلاشٍ عبثي لجسد عابر، سينسونه بعد لحظات من تواريه أسفل التراب.

ستشاهد يُمنى بعد تلك الليلة بسنوات فيلمًا تشعل فيه بنت النار في نفسها، بعد أن ضبطتها أختها مع زوج الأخت في فراشهما، لم تنطق الزوجة، تهاوت على الأرض بنظرة مسطحة، لم تلم أختها الصغيرة، التي دللتها في طفولتها، وغيرت لها ملابسها وصففت لها شعرها وأطعمتها، وأسكتت بكاءها بوضع إصبعها في فمها، لم تلمها ولم تصرخ فيها ولم تضربها ولم تقتلها، لو فعلت، ربما لم تكن الأخت الخائنة لتشعل في نفسها النيران، لكن الصمت ـ الصمت الأشبه بشرٍّ صافٍ يتشكل في أشكال كثيرة، أشباح رجال، ورسل موت بأسمال سوداء، ووجوه مخيفة ووحوش مرعبة وأطفال ملبوسين، مثل الصمت الذي واجهت به مرمر الحياة والعالم والناس بعد كل ما حدث لها ـ لا يمكن التغلب عليه إلا بنار تطهر كل شيء.

ستتوقف يُمنى كثيرًا أمام ذلك المعنى، وستعرفه أكثر عندما تختار التخصص في الأمراض الجلدية والجذام بعد تخرجها

من كلية الطب، ستتعامل كل يوم مع الأجساد المحترقة، والجلود الذائبة، والآذان المتساقطة والأصابع المبتورة، وستحاول الاعتياد على المشاهد القاسية، ستضع زيت النعناع أسفل أنفها حتى تتغلب على الرائحة التي لم تفارقها منذ تلك الليلة، وستحاول أن تنسى، أو أن تعتاد.

ستنهي الكلية، وستتسلم تكليفها في مستشفى الجذام، بجوار بيتها القديم، بين بيت الجاز والمقابر. لا تغادر هذا المثلث أبدًا حتى بعد هجرها للبيت مع أهلها، ستظل تمر عليه كل يوم، وتتطلع إلى شرفته كل يوم، وتتأمل تلك اللحظة، حكم عليها بالتجمد في تلك اللحظة، وفي ذلك البيت، وتلك الشرفة، وهذا السطح الفارغ أمامها، الذي وقفت عليه يومًا فتاة اسمها مرمر تحولت بشكل ما إلى قصة أسطورية في ذاكرة الجيران والناس، بعد أن دُفنت في مقبرة غرباء، في نهاية طريق المقابر، وبجوار الترعة الصغيرة التي تشق الطريق. قبر وافق أصحابه على دفن البنت فيه بعد أن هاتفهم حارس المقابر مستأذنًا، لهذا، لم تحصل مرمر على شاهد رخامي يحمل اسمها، ولم يهتم أحد حتى بالفكرة. حزنت يُمنى لأن اسم البنت تلاشى مثلها، رغم أنها تعرف بأن لا شيء تحت ذلك الحجر سوى جلباب فارغ كفنوه وكأنه جثة محترقة. وأن مرمر الحقيقية لم تعد هنا، لا جسدًا ولا روحًا. غادرت بالفعل إلى عالم آخر، ربما تحسدها يُمنى عليه، عندما تستعيد كامل القصة، وتفكر

بأن كل الحيوات معادة ومكررة. لا خيال في بدء حياة جديدة. كل من سيولدون سيولدون بذاكرة قديمة وحياة قديمة، وكل من سيرحلون، سيعرفون أنهم لم يعيشوا الحياة كما كان يجب عليهم أن يعيشوها.

تتذكر يُمنى كل ذلك، في هذا الحمَّام الضيق الأبيض، كل شيء فيه أبيض، لا لون سوى أحمر الخطين الداكنين في اختبار الحمل، خطان يقولان أن ببطنها ثمَّة كائنًا ينمو. طفل جديد من المفترض أن يأتي إلى العالم. وعليها أن تمنعه من ذلك.

مكتبة
t.me/soramnqraa

الحقيقة

في الليل تنام الملائكة..

ربما هذا ما فكرت فيه مرمر وهي تسير بين أمها وعمتها. بينهما أو داخلهما لا تعرف. بالتأكيد تنام الملائكة ليلًا فلا تقدر على حمايتها. تقول أمها إن الملائكة تحمي الأطفال، فلا خوف عليها إن حملت صفائح الجاز من حوش السلم إلى سطح البيت عبر السلم المكسر، أو جلست أمام وابور الجاز تقلب الطعام في الحلة المعدنية الكبيرة لمساعدة أمها المنشغلة دومًا. لكن في الليل لا شيء ليحميها، لا الملائكة ولا الوحوش، ولا أبوها بملامحه الجامدة، ولا عمها الذي يجلس معها في المساء لمشاهدة فيلم أجنبي. جسدها الضئيل تلاشى بين جسديهما الضخمين. رغم ضآلة جسم أمها وقصرها، لكنها بدت مع العمة الممتلئة وكأنهما كتلة واحدة تبتلعها. جلباباهما السوداوان والطرحتان الطويلتان بدتا كأجنحة سوداء تلفهما. أو أنه إعصار أسود سيحملهن جميعًا إلى مكان آخر، مثل الفيلم الذي شاهدته في التلفزيون ظهر يوم

بعيد. حين حمل الإعصار البنت ذات الحذاء الأحمر إلى مدينة أخرى جميلة ومرصوفة بالطوب، قابلت هناك أسدًا ورجلًا حديديًّا وخيال مآتة، لم تفهم شيئًا من كلامهم لأنها لا تستطيع ملاحقة الترجمة على الشاشة، لكن الحكاية أعجبتها. رغم شكلهم الغريب والمضحك وحركاتهم وغنائهم وصيحاتهم، بدوا لمرمر طيبين جدًّا، أطيب من الوجوه التي تطاردها في بيت الجاز. من وجوه أبيها وجدتها وعميها وعماتها وأولادهم. وجه أمها كان طيبًا حتى تلك اللحظة التي ضغطت فيها على بطن مرمر المنتفخ وضربت صدرها بيدها. انتفخت بطنها أسبوعًا بعد أسبوع، إلى أن بدأت في التحرك. لم تفهم ما الذي يحدث لها، وظنت أن ثعبانًا أو سحلية قد تسللا داخل جسمها. كما هددتها أمها بأن هذا ما سيحدث لها لو استمرت في اللعب مع العيال في المقابر. هددتها أيضًا أن أطرافها ستتساقط لو استمرت في التسلل معهم إلى المبنى القديم لمستشفى الجذام بحثًا عن الكنز المدفون أسفله. قالت إنه لا شيء مدفونًا هناك سوى جثث العيانين، وأنها إن مست الأرض ستتحول إلى شجرة. مثل آباء العيال وأمهاتهم الذين يذهبون كل أحد إلى المستشفى لاستلام أدويتهم الشهرية أو نصف الشهرية، يجلسون في الشمس أمامها أو أمام كوبانية الجاز في انتظار طويل، بصبر بدا لها مفزعًا. أحيانًا تتجول النسوة المنتظرات لدورهن في استلام الدواء بين المقابر لجمع قُرص

الرحمة والثمار التي تلفها النساء في أكياس بلاستيكية ويوزعنها أمام أضرحة أهاليهن. وأحيانًا ما تتجول مرمر معهن لتأخذ هي الأخرى كيسًا أو اثنين، وقُرصة أو اثنتين. تأكلها مع بقية العيال فوق شاهد قبر رخامي نظيف وبعيد عن الزحام. تحاول قراءة ما كتب فوقه من أسماء وتواريخ. وتحسب عمر كل ساكن لقبر. كانت نبيهة وشاطرة في الحساب، ذهبت إلى المدرسة حتى الصف السادس ثم لم تعد أمها تهتم بذهابها، لم تعدها لقدوم المدرسة، ولم تشترِ لها شنطة جديدة أو مريلة باهتة، ولا أخذت رأيها في الأمر. لم تعِ بأنها لم تعد تلميذة تذهب كل صباح إلى مدرسة (الست مباركة) إلا عندما رأت الأطفال عائدين ظهرًا بملابسهم المتسخة وحقائبهم المثقوبة دون أن تكون واحدة منهم.

لم تقل شيئًا، ولم تعترض، لم يبدُ لها الأمر مهمًّا، ربما اعتقدت أن هذا طبيعي، أن تذهب بضع سنوات إلى المدرسة ثم تتوقف مثل بقية بنات العائلة ماعدا بنات عمتها الصغرى اللاتي يصر أبوهن على استكمال تعليمهن. لكنها على الأقل تعرف كيف تكتب اسمها، وكيف تجمع وتطرح وكيف تقرأ أسماء الممثلين على تترات المسلسلات العربية. وأسماء الميتين على شواهد قبورهم.

القبر النظيف كُتب عليه اسم بنت، لا تتذكره لكنها تتذكر التاريخين. ١٩٧٤-١٩٨٧. ماتت في الثالثة عشرة، نفس عمرها الآن. أحبت هذا القبر بالذات، وشعرت أن هذه الفتاة بشكل

ما صديقتها، تتسلل من بين أصحابها وتذهب لتجلس على شاهد القبر، تتأمل السحالي النائمة على القبور المنخفضة، أو السائرة بين الحجيرات المرتفعة، تتابع حركة ألسنتها وهي تخرج وتدخل ببطء. لا تخاف من السحالي. أخبرها جدها قبل موته بأن السحالي تسقي الميتين في قبورهم. أحبت ذلك، وشعرت بأنها كائنات طيبة، تسقي الميتين المساكين المحبوسين أسفل الأرض وخلف الجدران، تمنت لو تحولت هي نفسها إلى سحلية، تتسلل بين طبقات الأرض، وتسقي جدها، وصديقتها الميتة ذات الثلاث عشرة سنة، وكل من حولها.

لا تريد أن تموت وتُدفن تحت التراب، تود لو تلاشى جسدها، كما يتلاشى الآن بين جسدي أمها وعمتها وهن يسرن في الطريق الطويل المظلم عبر الشوارع الخلفية وصولًا إلى مزلقان السكة الحديد، لا تعرف إلى أين يتجهن لكنها تسير صامتة، والألم أسفل بطنها ينفض جسمها. عندما بدأت بطنها في الانتفاخ ظنت أنها تحتضر، وأن السحلية التي مست قدمها في المقابر احتلت جسدها، ستنهشه من الداخل إلى الخارج، وستتحول إلى بقايا داخل بطن سحلية ضخمة. لكن أمها شهقت عندما رأت البطن تتحرك، صرخت بصوت يشبه العويل، ولطمت صدرها، ثم لطمت وجه مرمر إلى أن سال الدم من أنفها. بكت كثيرًا جدًّا، لأنها لم تسمع الكلام، وتركت السحلية تمس قدمها في التُّرب.

عندما عاد أبوها بعربة الجاز، سمعته وهو يربط الحصان أمام البيت، تخيلته وهو يضع أمامه العلف والماء ويدفع العربة لتستند إلى الجدار، فاختبأت فورًا في الفراغ الضيق بجوار السرير والدولاب في الغرفة الوحيدة. بعد دقائق، سمعت صياح الأب في وجه أمها، ثم خطواته المسرعة إلى الغرفة، أمسكها من ذراعها ونفضها كما ينفض المخدة الرفيعة التي يضعها أسفله فوق عربة الجاز. هي معتادة على ضرباته ولكماته كلما ارتكبت خطأ، لكن هذه المرة لم يضربها، اعتصرها بيديه فلم تتمكن من التنفس. صراخ أمها لمَّ جميع من في البيت داخل الغرفة الضيقة، لكنها لم ترَ أحدًا. رأت العالم مشوشًا مثل شاشة التلفزيون عندما يهتز الكابل المسروق من الدش أعلى سطح البناية المجاورة. ولم تسمع شيئًا بعدها.

خرج الجميع من الغرفة وتركوها في الظلام وحيدة، تسمع صياح أبيها وكلمات العم المبهمة وبكاء النساء، كل هؤلاء البشر اجتمعوا في صالة البيت الضيقة أمام الجميع، أمام الشرفة المفتوحة المكشوفة لسكان الحارة. كل شيء يحدث في بيت الجاز يُعرض فورًا أمام العالم. كل شيء منكشف للجميع، شعرت أنها عارية، جلبابها الملون يرتفع شيئًا فشيئًا من فوق ساقيها إلى أن يغطي وجهها، وشعرت بأن هذا ما حدث فعلًا ذات يوم بعيد. ارتفع جلبابها ليغمي عينيها، ثم شعرت بالشيء

يخترق جسدها، السحلية اخترقت جسدها وعاشت داخل بطنها. هذا ما حدث دون أن تنقذها الملائكة ولا الأم ولا الأب ولا عمها الأصغر الذي جلس بجوارها في تلك الليلة، يشاهد الفيلم الأجنبي ويدخن الجوزة. تعرت أمام الشرفة المفتوحة على أرض الصالة الرطبة أمواها وأبواها نائمان بالداخل. ما الذي فعلته بالضبط؟ كيف كانت ستمنع السحلية من اختراق جسمها الصغير؟ نامت ليلتها أو فقدت الوعي، واستيقظت في الصباح دون لباسها الداخلي، وجلبابها مسدل حول ساقيها، ولم تشعر سوى ببعض الألم الذي زال سريعًا في نهاية اليوم. وترك بعض التشنج في فخذيها وباطن ساقيها.

هل تبكي أمها لأنها ستموت؟ ربما عليهم سؤال عم «زيزو» عما حدث، ربما رأى السحلية وهي تتسلل إلى جسمها، ربما يستطيع المساعدة. لو حكت لأمها ما حدث لن تصدقها، وسينكر العم كل شيء، سيدعي أنه لم يرَ شيئًا، ربما لم يرَ فعلًا وسط دخان جوزته، الدخان الكثيف الذي يدير رأسها كلما نفثه في وجهها وهو يقهقه، تبتسم كلما فعل ذلك. استحلت أحيانًا الدوار الخفيف الذي يسببه الدخان ويجعلها تسقط في النوم كل ليلة مكانها.

عاد الأب إلى الغرفة ونزعها من الأرض، رفع جلبابها إلى بطنها ونكز ما بين ساقيها صائحًا: «من لمسك هنا؟» قالت بصوت خافت، ربما لم يسمعه أحد: «السحلية».

الكاتبة

ستتذكر رضوى.. نعم.. عليها أن تتذكر..

عليها أن تتغلب على الفراغ داخلها..

عليها أن تتوقف عن الارتعاش، وعسر التنفس، ونوبات الفزع. وهذا الثبات الغريب للأفكار. تشعر بمخها ثابتًا مكانه، لا يصدر أوامره لعضو في جسمها، لا يفكر. تتخيل مخها يقف ناحتًا الأفكار على جدار جمجمتها الداخلي بقلم مدبب. يحفر الأفكار بالسن الحاد فتنزف دماءً، لكن الفكرة تظل ثابتة داخلها. اعتادت أن تحفظ جدول الضرب، ومعاني الكلمات الإنجليزية، وأسماء الفلاسفة والعلماء ومحافظات مصر وأسباب حدوث ثورة ١٩ بهذه الطريقة، أن تحفرها على جدار رأسها الداخلي المدمم. اليوم عليها أن تكتب بنفس الطريقة، أن تحفر الكلمات على جلدها، أن تحفرها بأعصابها، أن تستخدم دماءها وعظامها وأسنانها وبؤبؤي عينيها في الكتابة. أن تقرر مواجهة العالم بشجاعة. أن تعترف بكل شيء تخفيه، هي التي تخفي الكثير. نعم تخفي الكثير جدًّا.

لا أحد يعرفها فعلًا، أبواها الراحلان لم يعرفاها، ولا أولاد عمومتها ولا الجيران ولا أصدقاؤها، ولا طبيبها النفسي ولا الرجل الذي أحبته. لم تجمل صورتها؟ حتى أمام نفسها؟ تنسى فعلًا مواقف كاملة، وأشخاصًا حقيقيين مروا عليها كأنهم لم يمروا. تنسى أخطاءها الشنيعة، وتصرفاتها الخاطئة، وتحتفظ بصورة الملاك. ليست ملاكًا، فعلًا. لا.. لا تحتفظ بصورة ملاك، بل بصورة لطيفة عن ذاتها. حتى تصرفاتها المضحكة الساذجة في مراهقتها تنساها. أو ترفض الاعتراف بها، تُقصي كذلك الأيام السيئة، والشوارع التي تكرهها، وحوادث التحرش، وظلم البشر، وفقد الأحباء. عليها أن تنسى، تنسى أيام الألم والقسوة، وكل الأشخاص الذين تجاهلوها، والذين أهانوها، والذين منحوها وعودًا لم يفوا بها، والذين اعتقدوا أنها مجرد امرأة تافهة، كاتبة عادية، كاتبة بلا مأساة حقيقية. لا تملك موقفًا حقيقيًّا.

ستكون هذه هي روايتها الأخيرة. ليس من السهل كتابة ذلك، الجملة التي تبدو بسيطة، تحمل من الألم ما يعادل جملًا أخرى في روايات لا تنسى مثل: «ماتت أمي اليوم أو ربما أمس لا أتذكر». أو «استيقظ جريجوري سامسا ليجد نفسه قد تحول إلى حشرة عملاقة». هذه الجمل الافتتاحية المبهرة التي تكتبها الآن من الذاكرة وحدها، تبدو لها اليوم مسكينة جدًّا، إلى جوار جملة تحمل كل ذاكرتها وهويتها وحياتها ومستقبلها. فالتوقف

عن الكتابة لا يعني شيئًا لها سوى الموت. أو ربما التحول إلى شيء آخر لا تعرفه. نسخة منها لا يمكن تحديدها.

عندما ستتوقف عن الكتابة بعد هذه الرواية، ستشعر حتمًا بالتحرر. سترتاح من عبء انتظار الفكرة، أو التفكير في الفكرة، والبحث والتخيل وقلة النوم والألم الشديد. الألم الذي يخترق صدرها كل لحظة بلا توقف. تخيل أن تستمر في دق مسامير في قلب أحدهم. أن يأكل الرخ كبدك كل صباح لينبت مجددًا في المساء. الكتابة هي الرخ الذي يأكل كبدها وهي المسمار الذي يدقونه في قلبها كل يوم. والتحرر منها مريح. نفس الراحة التي شعرت بها عندما حلمت أنها كتبت منشورًا على الفيسبوك تعلن فيه توقفها عن الكتابة. «اعتزلت الكتابة إلى الأبد». هذا ما كتبته في الحلم. أخافها شعورها الكبير بالخلاص. شعور لم تحسه قط في الواقع، وكأنها تستمع إلى أغنية تحبها فيتحول الهواء إلى رائحة ورد، وحرارة الشمس إلى وشاح حريري، والأرض إلى سحاب.

استيقظت بنفس الشعور بالراحة. سترتاح لكنها في داخلها حتمًا ستموت. الموت راحة وتحرر، ليس هناك تناقض في الأمر. سترتاح أولًا ثم تموت وليس ستموت ثم ترتاح. ستتوقف عن الفزع من الصفحة البيضاء الفارغة، ومن تعداد الكلمات في أسفل جانب الصفحة، ومن سؤال القراء في كل ندوة: «متى ستصدرين روايتك القادمة؟» سترتاح من تلميحاتهم بأنها لن تكتب أبدًا رواية

جيدة مثل الرواية السابقة التي بصدد التحول إلى فيلم، أو الرواية الأخرى التي أشاد بها النقاد بمصطلحاتهم المعقدة والتي لا تفهم معظمها، مؤكدين بأنها كسرت حدود التجريب. وسترتاح حتمًا من فخاخ المقارنات، ومن الإحباطات، ومن الحروب المستمرة، ومن تجاهل النقاد والصحفيين ولجان الجوائز، ومن الاتهامات القاسية الكاذبة. لن تفكر مجددًا في أنها تعبت جدًّا في كتابة رواية تجاهلها الجميع، ولن تشتكي من شعورها بالنبذ. ومن انتظارها لقوائم جوائز لن تضم أبدًا اسمها. وسترتاح أيضًا من التحدث عن الكتابة، والسفر لندوات لن تضيف لها شيئًا، ومن قراءة مسودات الأصدقاء، ومن حضور ندواتهم ومناقشتهم، ومن الحديث عن الكتابة النسوية، ومحاولاتها لنفي تهمة الكتابة النسوية. لكن أكثر ما تتطلع للتخلص منه، هو المودة الزائفة. من تحيات وأحضان الكاتبات وابتساماتهن التي لم تقنعها يومًا. عندما تعتزل لن يعود هناك مبرر للكراهية، لا المنافسة ولا أي شيء آخر. سيكرهها من يكرهها ويحبها من يحبها بوضوح مذهل، سيثير إعجابها، فتبادلهن حبًّا بحب وكراهية بكراهية. المشاعر الواضحة هي ما ينتظرها بعد انتهاء الكتابة. ضحكت من المفارقة، الكتابة التي لا بد أن تعبر عن المشاعر الواضحة هي ما تمنعها منها.

لأن الكتابة قاسية، عليها أن تعري نفسها، وتعري ما حدث أيضًا. الكتابة أقسى من الحياة. في الحياة سيسقط الطفل من الشباك،

وسيلتقطه رجل ما، وسينقله إلى المستشفى، وسينجو، لأنه حتمًا سيجد من يعتني به، سيجد من يرعاه، ربما من يتبناه، لأن مقطع الفيديو سيثير مشاعر الجميع، وسيتهافت سكان المدينة على المساعدة، وعلى زيارته في الملجأ، وعلى عرض تبنيه ورعايته. الحياة أرحم من الكتابة، لأنها في الكتابة لن تفكر كثيرًا في الطفل، بل ستبحث عن أصل الحكاية، عن الجذر المختفي داخل الأرض، عن القسوة التي أدت للفعل، عن البطن التي لفظت، واليد التي ألقت، والأرجل التي ركضت هاربة. ستتقصى رضوى عن الهشاشة، عن الشر الذي يلف العالم مثل غلالة رقيقة. شر البشر يدفعها للتعاطف، الشر يخفي كل اليأس.

كيف يمكن أن تبدأ رواية عن القسوة؟ ربما عليها أن تنظر حولها وأن تبدأ في تأمل المكان والزمان. المكان يدفعها للتفكير في الكثير من الاحتمالات. بيتها المجاور للمقابر، إذا وقفت في الشرفة، ترى شجر الجازورين يغطي الغرف الصغيرة ذات القباب، والبوابات الصدئة، والحارات المتربة، وترى الأردية السوداء ومئذنة الجامع الذي يغسِّلون فيه الموتى ويصلون عليهم ويودعونهم. هذا ما تراه من شرفة بيتها الذي تحبه وترتاح فيه. هذا المكان الذي يختفي فيه البشر وتتلاشى الحياة، هو ما يمنحها الشعور بالراحة، ربما لأن أبويها الراقدين هناك، أسفل التراب لا يزالان قريبين، بشكل يمنعها من الشعور بالوحدة، رغم أنها في حياتهما عاشت وحيدة.

عليها أن تسير في الشوارع المحيطة، وتتأمل وجوه الناس السائرين، زوار المقابر الذين لا يرون أنفسهم من الخارج، عليها هي أن تراهم، لأنها تعرف أنها ستجد في وجوههم القصص التي تريدها لتتمكن من الكتابة.

أحيانًا تتساءل: لماذا أصبحت كاتبة؟ تشعر بأن الكتابة عبث لا تفهمه، قلبها يدق وكأنه داخل طبلة مجوَّفة، جلدها مشدود، ونَفَسها يؤلمها، الفراغ داخل صدرها ملموس كمثل شعورها عندما تنتهي من نفخ بالون. تشعر أن صدرها نفسه تحول إلى بالون ممتلئ بالهواء الخارج من فم شخص آخر. ضغط غريب على جانبي صدرها وأسفل حلقها عجزت دائمًا عن وصفه، ولم تسأل عنه أحدًا، حفظت هذا الشعور داخلها واعتقدت أنها تتفرَّد به. شعور موجع لكنه لذيذ، كأن ثقل جسدها المتمركز دومًا في صدرها، في قلبها، اختفى، لكنها في نفس الوقت غير قادرة على التحليق مثل البالون الملون. تتلاشى لكنها تزداد تحجُّرًا. مثل الكتابة، تبتعد عنها، ويظل قلقها يتقافز داخلها، يؤلمها، يرعبها، يمنعها من النوم. لماذا تكتب؟ ماذا تريد أن تروي؟ لماذا تصر على ترك دليل على أنها مرت من هنا، أن حياتها لم تكن مجرد حياة عابرة، لامرأة عادية عاشت وماتت دون أن يعرفها أحد؟

وماذا لو كانت كذلك؟ مجرد امرأة عادية لا يعرفها أحد؟ لعل حياتها العادية المتخيلة تلك أجمل، امرأة تعيش وتتنفس وتذهب

إلى السوبر ماركت وتقع في الحب، مع رجل عادي أيضًا، لن يؤلمها لأنها كاتبة، لن ينزعج من انشغالها وتوهانها أحيانًا، ومن سرحانها الدائم في سقف الغرفة، أو مزاجها المتقلب أو شكواها الدائمة من الألم، ومن الإحباط، ومن الظلم، ومن عدم الرضا عن أي شيء.

حياتها الحالية تضيعها في البحث المحموم عن رواية حقيقية تكتبها، عن رواية تمنحها تقديرًا من أشخاص لا تعرفهم، سينسونها بعد لحظات وستنساهم بعد لحظات. شيء غريب جدًّا، أن تقضي كل ثانية في حياتها خائفة من غرباء. راغبة في المحبة، في كلمات مجاملة وحفلات تكريم، وندوات تعقد على شرفها تجيب فيها عن أسئلة تافهة، وتكتب اسمها على نسخ روايتها التي لم تعد ملكها، تكتب اسمها وتاريخ اليوم وكأنها تجمد لحظة مشتركة مع القارئ، الذي سينساها بمجرد صدور رواية أخرى تهيل التراب على روايتها. تُنسى كأنها لم تكن، ولا كانت الرواية التي أضاعت أيامًا وليالي تفكر فيها وتحلم بها وتحرق أعصابها ووقتها، وتقمع رغباتها البسيطة في مشاهدة فيلم عربي قديم أو متابعة برنامج الطبخ الذي تحبه أو اللقاء بالأصدقاء من أجل كتابتها.

تخاف الكتابة عما تريده فعلًا، أو عما يؤلمها فعلًا، فكرت أنها تحولت إلى محض آلة، وأن كل ما باتت تفكر فيه هو كتابة نص يمنحها شعورًا مؤقتًا بالرضا. تلاشت داخل الكتابة، امتصتها

وسيطرت على مشاعرها وذاكرتها. تحوَّل كل شيء عزيز في حياتها إلى مجرَّد نصٍّ محتمل. الكتابة جميلة، لكنها مخيفة، ربما لأنها بشكل ما تحوِّل الكاتب إلى آلة تسجيل وتفريغ للمشاعر. أو ربما هي في مرحلة خوف. ثمَّة بقع مظلمة في عقلها. تكتلات من الضغوطات التي تضعها على نفسها أملًا في أن تصبح كاتبة حقيقية. بقع مظلمة غزت عقلها والكتابة فعل إنارة، لكنها باتت تخاف الضوء وترغب في الاختباء، الانزواء داخل سجن صغير صنعته لنفسها.

يبدو أنها سجينة الخوف، سجينة فكرة أن ما تكتبه قد يظلمها، قد يعرِّضها للانتهاك، أن تتحول إلى مشاعٍ، أن تُنتهك روحها وتُدمَّر سمعتها، والأقسى أن يتلاشى جهد سنوات باتهام ظالم. ربما ادعاءات مضحكة، ربما ادعاءات سخيفة، لكنها توترها وتخيفها، كيف يمكن أن تكتب وهي خائفة؟ كيف يبدع أي فنان وهو خائف أو وهو يشعر بالظلم أو الانتهاك؟ وكيف يمكن أن يحوِّل كل هذا الألم إلى ألم غير شخصي. لأنهم يقولون دائمًا: خذي مسافة من شخصياتك، ابتعدي عن رواياتك، لا تكتبي ما تفكرين فيه تمامًا، أعيدي صياغته، غيري كل شيء قد يتصل بك، لكي لا يقول القراء إن هذه هي حياتك الحقيقية. أو يستغل أحد تفاصيلك في القضاء عليكِ. لا تبرزي نقاط ضعفك. لا تكتبي عن نفسك. ماذا لو ألقت كل ذلك خلف ظهرها، وكتبت

عن نفسها فعلًا؟ عن ألمها الحقيقي، عن الأشياء التي تخفيها دومًا، عن سر كبير لا تريد الاعتراف به ولو لنفسها. ستكتب رواية لا تتردد عندما يسألها أحدهم إن كانت هذه قصتها الحقيقية، ستقول «نعم هي قصتي الحقيقية»، دون أن تخاف. ستقول: «نعم حدث لي كل ذلك، كل الروايات عني وكل الشخصيات هي أنا»، حتى هذا الخبر الذي شغلها طوال تلك السنين، ليس لأنه غريب جدًّا، أو مثير جدًّا، ولا لأنه سيمنحها الرواية المثالية، لكن لأنه حرَّك شيئًا داخلها، أو منحها ذلك الأمل بأن خلفه تختبئ قصتها الحقيقية. هذا الخبر هو وسيلتها لاكتشاف نفسها والتأمل في حياتها، وربما الوصول لتلك النقطة المشتهاة في أي رواية، نقطة التنوير التي لا يعود بعدها العالم كما كان من قبلها.

الرواية

سقطت مرمر أمام عينَي يُمنى كما يسقط الكوب من يدها في لحظة غافلة، وكما يسقط رماد سيجارة أبيها، وكما ستشعر دومًا بأنها تهوي لأسفل. يسقط شيء ما داخلها في لحظات الخوف، والقلق، والحزن والألم والانهزام. يهوي إلى قدميها ويتركها فارغة، وكأن ما يشغل فراغ جسمها ليس الأعضاء التي تعرفها وتحفظ مواضعها وأسماءها ووظيفتها، ليس القلب والرئتين والمعدة والكبد والطحال والأمعاء والرحم والدماء والشرايين. بل هو شيء أكبر، مثل خرافة، مثل نفسها الصغيرة، مثل هيئتها المنكمشة أسفل طبقة خارجية بذات الملامح وذات الملابس وذات الأفكار والمخاوف.

هي امرأة داخل امرأة، امرأة تعيش تحت جلدها، لا تفعل شيئًا سوى تأمل لحظة اشتعال مرمر، وامرأة خارجية، تذهب إلى المدرسة، وتتفوق في دراستها، وتدخل كلية الطب، وتحتفل مع العائلة، وتخرج مع الأصدقاء، وتبكي وتفرح وتتزوج، ترتدي

فستان عرس أبيض وتستسلم ليدَي الكوافيرة وهي تغطيها بالمكياج والألوان والطرحة المطرزة بالكريستال اللامع. وتستسلم لجسد رجل يخترقها ويسحقها أسفله كلما أراد، وتنجب طفلة لم تردها، وتبدأ في تحضير الماجستير، وتعمل في مستشفى الجذام بروح متبلدة أمام أجسام ناقصة وهشة.

لن تعرف نفسها أبدًا. ولن تستطيع إلقاء نظرة على نسختها المبطنة لجسدها الحقيقي. لكنها تشعر بها وكأنها تذوب أسفل قدميها كلما أقدمت على شيء، كأن تقول لا، لا أريد دخول كلية الطب، لا أريد الزواج من هذا الرجل، لا أريد إنجاب تلك الطفلة، لا أريد أن أعمل في هذا المستشفى، لا أريد أن أجلس أمام مكتب معدني متسخ أكتب روشتات معادة لأدوية لا تتغير، لمرضى لا يتغيرون ولا يتحسنون، ولا يتحولون إلى أي شيء. نفس الوجوه والأصوات والنظرات الخائفة داخل عينين مثل ثقبين ضيقين. لا تواسيهم بجملة عابرة، ولا تسأل عن حالهم. لا شيء سوى وصفات لأدوية يأخذونها بانتظام، يتناولون الروشتة، ويرحلون، بلا أثر متخلف عنهم، لا رائحة عطر ولا عرق، لا صوت ولا بحة ولا حتى دعوة طيبة للطبيبة التي تهتم بهم، لأنهم يعرفون بأنها لا تهتم، وأنها ستغادر المستشفى في الساعة الرسمية لانتهاء العمل، وستذهب إلى العيادة الراقية في وسط المدينة، لترتدي معطفًا أبيض ناصعًا أنيقًا يحمل اسمها

وشعار العيادة، وتضع نظارتها المعتمة على عينيها، وتزيل شعر النساء الجميلات من مناطقهن الحساسة بجهاز الليزر. ستجلس لترى الكثير من الفروج والسيقان والأذرع والظهور والبطون والآباط. تضع النظارة المعتمة وتطلق دفقات الليزر على المناطق المحددة. تتأوه السيدة من ألم الومضة، تتشنج يدها أو ذراعها أو فرجها، ثم تعتاد الألم. كل الألم يمكن الاعتياد عليه. كل الآلام مجرد ومضات حارقة تتلاشى في لحظات. هذا ما آمنت به يُمنى. ولهذا عليها أن تتمسك بقرارها.

ستسقط يُمنى الطفل في بطنها. ستسقطه إلى أسفل ليتلاشى. لن تستطيع أن تنجبه أبدًا، لن تستطيع أن تعيش تلك اللحظات مرة أخرى. أن يتكون شخص آخر داخل جسمها، ثم يلفظه. قصة مرمر التي تحكيها النسوة على مصاطب الشوارع في حيها القديم منحتها ربما ما يشبه الأمل. أو الغضب. أو شعورًا آخر لا تعرفه.

يقولون إن الطفلة لم تعِ ما حدث لها، لم تفهم أن ثمَّة شيئًا يخترقها في تلك الليلة، وسط أبخرة الحشيش والظلام والرائحة الرطبة للبيت الغريب، مثل بيت الأساطير، كل غرفة في هذا البيت تحوي قصة، وتحوي أشخاصًا لا يعرفون أنهم محض قصص في مخيلة أحدهم. تفكر كثيرًا في هذا البيت وهذه العائلة، وكأنها تنتمي بشكل ما إليهم، أحيانًا ما تحسدهم، ربما على العيش من السطح. الحياة بأكملها لا شيء سوى لحظات تافهة تمر،

لا ماضي ولا مستقبل، مجرد لحظة حالية، حاضر مستمر. تجلس النسوة على المصطبة أمام البيت يجففن أرغفة الخبز ويطحنَّها ثم يبعنها لمحلات الطيور والحيوانات، أو يرسلن بناتهن إلى البيوت لخدمة آخرين، أو يخدمن هن آخرين، يحصلن منهم على نقود قليلة وثياب قديمة وأحذية ممزقة. هؤلاء النساء والأطفال والرجال الذين يرتدون ملابس آخرين وأحذية آخرين، مجرد نسخ مقلدة، كل هؤلاء البشر أمام عينيها يعيشون حيوات ليست لهم، هم بلا حيوات أصلًا، مجرد أجساد شمعية تتحرك، مجرد بالونات منتفخة تطير..

لكنها كلما عادت من المدرسة ورأت حذاءها القديم الذي صار حذاء مرمر، على عتبة البيت، بينما تقف البنت بالداخل حافية تغسل الصحون أو تساعد أمها في تنظيف غرف النوم، تشعر بأنها هي من يتخلى عن حياتها، أو أنهما تتبادلان الأماكن، جزء منها يتحول إلى مرمر، وجزء من مرمر يتحول إليها. ربما لذلك، لا تستطيع أن تتخلص من طيفها داخلها، من مشاعرها التي انتقلت إليها. كل الألم، والتجمد والحيرة والقلق والتعب والخوف، وأيضًا الاحتراق.

من هذا البيت، يخرج الرجال بعربة الجاز ليتجولوا في الشوارع بلا هدف، حتى حصانهم الذي نفق بعد سقوط مرمر بشهور، بدا وقتها مثلهم، لا يشعر بشيء، يسير بهم في الشوارع

ويعود لينام واقفًا بجوار جدار، لا فرق كبيرًا بين الحصان وبين أي إنسان في هذا البيت، وأحيانًا ما تفكر أنه لا فرق بينه وبينها أيضًا، هي كذلك تسير مغماة العينين، تجر قاطرة من الأفكار والهموم وحياة اختارها لها آخرون. هي مثل مرمر، لا ينقصها سوى صفيحة جاز وعود ثقاب وسطح تهوي من أعلاه لتصل أخيرًا إلى نقطة جديدة.

تتحدث النساء، جاراتها القديمات اللاتي يزرن المستشفى طلبًا لعلاجات لا يحتجنها، وممرضات المستشفى، وبائعة ورد المقابر، بأن القبر الذي دُفنت فيه مرمر صار ضريحًا لأجنة مجهضة. اختارت النساء أن تُدفن تلك الكتل المبهمة المدماة التي تسقط فجأة من أرحامهن بجواره، أسفل التراب أو حتى فوقه بعد مداراته بأوراق وأكياس. لو كان جنينًا أكبر سيدفعن رشوة لصبي اللحاد من أجل أن يدفنه داخل القبر، علهن يراضين مرمر بأطفالهن الذين لم يوجدوا قط. وكأنهن يمنحنها عوضًا عن طفل لم تره، سقط من نافذة حمَّام حقير في مستشفى جامعي أمام عينيها دون أن تتمكن من إنقاذه.

كل هؤلاء الأطفال المجهضين، الأجنة بلا ملامح، أو بملامح بارزة مثل كائنات فضائية، رؤوس ضخمة شفافة وذراعين مثل زعانف سمكة وظهور محدبة وسيقان ملتوية. كل التحولات التي درستها سنين في كلية الطب، وشاهدتها في الصور التوضيحية

وامتحنها فيها الأساتذة شفويًّا وتحريريًّا، كلها ترقد تحت التراب بجوار وداخل قبر مرمر. وعليها أن تضيف إليها تحولًا جديدًا، لجنين يبلغ من العمر ثلاثة أسابيع فقط.

ربما تقدر على إضافة أسبوع آخر إليه، لتجعله في الأوراق الرسمية ينتمي فعلًا إلى زوجها. لكنها ستعلم دومًا، أن هذا الطفل ينتمي للحظة عابرة، تحول فيها الخيال إلى حقيقة. لحظة ما استسلمت لرجل آخر، ونسيت كل ما تتشبث به من أفكار والتزامات ومسؤوليات. لحظة نسيت فيها أنها زوجة، وأنها أم، وأنها ابنة، وأنها طبيبة، وأنها تسخر من النساء اللاتي يفعلن ذلك، وتحكم عليهن وتندهش منهن.

كل الحكايات التي تحكيها الممرضات، والمريضات، والصديقات وأصحاب المشاكل على صفحات الفيسبوك، والمتصلات بالشيوخ في برامج التلفزيون، لم تحمها من الوقوع في نفس التجربة. من السقوط في تلك الهوة التي ابتلعتها، على شيزلونج جلدي أسود فوقه كشافات ضخمة. شيزلونج تكرهه لأنه بشكل ما يذكرها بأضرحة تقديم القرابين، أو هكذا قالت لطبيب الأسنان الجديد في الغرفة المجاورة لغرفتها في العيادة الخاصة التي بدأت العمل بها قبل شهور. الطبيب الذي يشبه نور الشريف جدًّا، حتى بنفس كرمشة الأنف عند الابتسام. والذي ينظر إليها دومًا بانبهار لم تره من قبل سوى في أعين رجال خيالها.

اليوم، بينما تجلس على قاعدة الحمَّام، تنظر إلى الخطين الداكنين، تعرف أنها سقطت في تلك الهوة بسبب نظراته تلك. النظرات التي تختلف عن نظرات زوجها إليها، ربما عليها أن تقول: اللا نظرات، لأنها تشعر أحيانًا بأنه لا يراها. هي مجرد كائن يعيش معه في نفس البيت، ويربي له طفلته، ويعد له طعامه، مجرد طيف يمكن أن يتجاوزه ببصره لينظر إلى أشياء أهم، شاشة الموبايل، وخزانة ملابسه عندما يقف استعدادًا للخروج، وابنته ومرآته.

عندما شعرت بحملها رغم اللولب داخل رحمها، ورغم سفر زوجها الذي استمر شهرًا هذه المرة، لم تندهش، ربما توقعت ذلك، أن يعاقبها الكون فورًا على الخطأ الوحيد الحقيقي الذي وقعت فيه. وكأنه اختصار لخياناتها الوهمية المستمرة لزوجها داخل خيالها منذ زواجهما إلى اليوم. أحيانًا ما تشعر بالذنب، لأنها تتخيل زوجها رجلًا آخر في السرير، تتخيله واحدًا من أبطال خيالاتها، ممثل تركي أو سوري أو أجنبي أو مصري، كل فترة تختلق بطلًا جديدًا لأحلامها طبقًا لآخر مسلسل شاهدته وأعجبها، تبادله الحديث طوال اليوم، وتبتسم من مزاحه وهي واقفة في المطبخ وحدها، أو بين الكشوفات الطويلة، أو وهي جالسة لساعات توجه جهاز الليزر لأجسام النساء، أو وهي تسير في الشمس من البيت إلى المستشفى كل يوم. تشعر بالذنب من كل العشاق المتخيلين، وكأنهم هم آباء هذا الطفل وليس الرجل الحقيقي الوحيد الذي سمحت له بلمسها.

الوحيد؟ على يُمنى أن تعترف اليوم، بينما تتأمل مصيبتها الكبيرة المتجسدة في الخطين الداكنين، أنها ليست بهذه البراءة، منذ رأت جسم زيزو فوق مرمر عبر شباك البيت وهي تشعر بشيء ما يأكلها من الداخل. شيء مُلح يدفعها لفعل أمور لا تفهمها، ولا تدري حتى بأنها تفعلها. حركات ونظرات وإيحاءات تخرج منها رغمًا عن إرادتها، وتشعرها بالذعر إن استجاب أحدهم لها، فتهرب فورًا.

تذكر مثلًا وقوفها في فناء المدرسة الإعدادية، تنظر بثبات إلى مدرس العلوم الجالس على ديسك خشبي يراجع كشاكيل الطلبة، مدرس ضئيل الحجم بوجه نحيل وشعر خفيف، لكن عينيه الزرقاوين شغلتاها، وقفت تنظر إليه طويلًا حتى رفع عينيه ورآها، ارتبك لأنها لم تتحرك ولم تُدر وجهها، كل يوم، تقف أمامه هكذا، تنظر إليه فيتصبب عرقًا.

ذات يوم، تبعها وهي تغادر المدرسة، سار وراءها طويلًا، عبر الشوارع التي تعمدت السير فيها، شوارع تبعدها أكثر عن البيت وعن المدرسة، تلتفت إليه فيسرع للحاق بها، لكنها تستدير وتركض هاربة.

استمرت في ذلك أيامًا طويلة، ثم بادرت بالتوقف والحديث، وبادرت بإرسال الخطابات العاطفية التي أذابته تمامًا، سمحت

له بلمس يدها، والالتصاق بها أحيانًا في الشوارع الهادئة، ثم قاطعته. توقفت عن النظر إليه، وتوقفت عن السير طويلًا بعيدًا عن المدرسة، صارت تركض مسرعة إلى البيت مع زميلاتها. وفي المدرسة، لم تنفرد بنفسها قط لتمنعه من الاقتراب منها حتى استسلم، اكتفى بالنظر إليها نظرات مستعطفة مثل كلب جائع حتى انتهت السنة الدراسية، وفي السنة التالية علمت بنقله إلى مدرسة أخرى.

هذا ما تفعله دومًا، قبل ارتداء الحجاب، كانت تسمح لمصفف الشعر بلمسات غير بريئة على عنقها وجيدها، ولصاحب مقهى الإنترنت بتقبيل يدها، ولمدرس الرياضيات في الدرس الخصوصي بأكثر من ذلك، وفي كل مرة، بعدما تنال ما تريده؛ تلك النظرات المتلهفة نحوها، تلك اللمسات التي تشعر بها مثل قطع ثلج على جلدها، تتحول إلى شخص آخر، متجمد، أعمى، أصم، غريب. تتجاهل أصحابها حتى يملوا ويبتعدوا.

لماذا تفعل ذلك؟ لم تطرح السؤال من قبل على نفسها، لكنها تتساءل اليوم بينما تتأمل اختبار الحمل، الخطان اللذان تكونا ببطء أمام عينيها، واضحان جدًّا، على عكس الاختبار الأول الذي بشرها بالطفلة، بدا الخطان فيه باهتين، مترددين ربما مثلها في ذلك الوقت، بين السعادة والخوف، وبين الحياة الجديدة التي تنتظرها، والحياة الجديدة التي تتكون في بطنها.

الخطان الواضحان حاسمان مثل قرارها بإجهاض الطفل الذي لا تعرفه، ليس طفلًا حتى، مجرد كيس صغير يقبع ساكنًا في نقطة ما على جدار رحمها، كيس بلا روح، ستسقطه دون ذرة ذنب، ودون أن يشعر بوجوده أحد. ماذا سيتغير في العالم لو لم يأتِ هذا الطفل؟ هل ستتوقف مثلًا الحروب في العالم؟ هل سيخترع عندما يكبر دواءً للجذام يعيد الأعصاب لحاملي المرض؟ أو يمنحهم أطرافًا جديدة، أو يعيد لهم شعورهم بالحياة العادية التي تعبر من حولهم دون أن يعوها؟ مجرد كيس لن يعيد ميتًا إلى الحياة، ولن يميت حيًّا، ولن يمنحها دهشة رؤية شخص جديد يتكوَّن أمامها. ستسقطه ببضع حبات تأخذها كل يوم إلى أن يهوي إلى قاع المرحاض، ثم ستشد عليه السيفون ليتلاشى دون صخب. أو ستلتقطه لتدفنه إلى جوار مرمر كما فعلت وتفعل النسوة في حيها أحيانًا. يدفن الأجنة في قبرها أو أسفل عتبات بيوتهن بلا قلب. الإجهاض ليس قاتلًا كما تصور الأفلام والقصص. مجرد سقوط كتلة متماسكة من دماء الدورة الشهرية، مثل الفوط الصحية التي تلقيها في صفيحة القمامة بلا تفكير. هذا ليس طفلها، تردد في ذهنها عدة مرات لتتمكن من النهوض وغسل وجهها، والخروج إلى عملها في العيادة. هذا ليس طفلًا ستقتله، ولا هو جزء من جسمها ستدفنه مثل ساق مبتورة، وتكمل حياتها بشعور أنه لا يزال موجودًا. ستنساه فورًا، بعد أيام من الإنهاك والألم، ستتظاهر أنها تعاني من نزيف حاد هذا الشهر،

وستجلس في بيتها مدعية المرض لتحصل على إجازة قصيرة. ثم ستعود مرة أخرى إلى الشارع والعمل، ستزور بيت أهلها دون أن تحكي ما حدث وقبل أن يعود زوجها إلى البيت، وستأخذ الحذر أكثر، لن تثق في لولب ولا حبات، حتى تتمكن من أخذ قرار حاسم بالطلاق أو الهرب أو الموت، ولأنها لا تملك شخصًا ينتزع منها الطفل ويلقيه من شباك بعد ولادته، عليها أن تفعل كل شيء بنفسها، وعليها أن تفعله فورًا. ثم تعود إلى حياتها الميتة.

ما يزعجها فعلًا، هو أنها لم ترتجف أو تبكي أو تستغفر الله أو تخبره بأنها لن تفعل ذلك مرة أخرى، يرعبها عدم إحساسها بأي شيء، لا خوف ولا قلق ولا اضطراب ولا ارتباك، لا شيء مما تراه في وجوه المريضات اللاتي يطلبن نجدتها أحيانًا، أو في وجوه الممثلات في الأفلام. لم تشعر بشيء فعلًا. تبلد لا يمكن التعبير عنه، سكون تام، تجمد في أفكارها إلى درجة أنها لم تشعر بمرور الوقت حتى طرقت مساعدتها الباب لأن المرضى ينتظرونها. يبدو أن ثمَّة شيئًا انكسر داخلها ليلة رأت ما رأت، شيء انتزع براءتها وتركها ببراءة مزيفة تحاكي براءة بطلات الأفلام والمسلسلات التي تراها، براءة تمثيلية، يبدو أنها أفضل من كل الممثلات اللاتي تنبهر بأدائهن.

أخفت الاختبار في جيب معطفها وعدلت حجابها في المرآة، نظرت إلى وجهها فلم ترَ نفسها، رأت مرمر، تنظر إليها وتبتسم نفس الابتسامة التي سبقت الموت.

الحقيقة

ستسير مرمر طويلًا بين أمها وعمتها، بسرعة حتى لا يوقفهن أمين شرطة متجول ويسألهن عن سبب وجودهن في الشارع مساء رغم حظر التجول. بسبب الحظر أيضًا لم يجدن عربة تقبل أخذهن إلى المستشفى الجامعي. لا تنطق إحداهما بكلمة، بينما تفكر مرمر في الملائكة والسحالي والدخان الأزرق الخفيف وأرضية الصالة الرطبة وجلبابها المتسخ الذي غسلته بيديها على حنفية المطبخ لتزيل بقايا ما حدث. ستفكر في قبر البنت الذي تحب الجلوس عليه، وستخرج لسانها وتدخله كما تفعل سحالي المقابر، ستبتلع ريقها لتسقي السحلية داخلها، السحلية التي تقول أمها إنها طفل ينمو في بطنها، وأن الأوان قد فات لفعل أي شيء. مرت ثلاثة أشهر قضتها مربوطة في قائم السرير الصاج، تطعمها أمها وهي تبكي، وتسقيها الماء كل بضع ساعات. بينما يسألها أبوها كل ليلة عمن فعلها. لم يدخل عليها أحد آخر، لا العمان ولا العمات ولا الجدة. لكن من شباك الغرفة، رأت يُمنى تتأملها،

يُمنى ابنة الأستاذة في مدرسة الست المباركة، التي حاولت كثيرًا إعادتها إلى دراستها دون جدوى، فباتت تدرِّس لها أحيانًا الكتابة والقراءة والأرقام في بيتها عندما تصعد لمساعدتها في إنزال الستائر أو ترتيب البيت وغسيل الصحون مقابل جنيهات قليلة تعطيها لأمها. أو ملابس قديمة لم تعد يُمنى التي تماثلها طولًا وعمرًا تريد ارتداءها، أو حقائب مثقوبة وأحذية كوتشي متسخة. لا تلعب يُمنى مثلها في الزقاق ولا أمام مستشفى الجذام ولا في المقابر، تذهب إلى المدرسة بتنورة رمادية وقميص أبيض، وتعود كل ظهر لتدرس في شرفة بيتها، تتبادلان النظرات والكلمات أحيانًا، وأحيانًا كثيرة ترى يُمنى وهي تتأمل بيت الجاز دون أن تنطق، ودون أن تنظر إلى كتابها المدرسي، تتأمل الشقق المتجاورة المنكشفة والأولاد الذين يلهون على السلم المتكسر الذي يربط بين أدوار البيت الأربعة، على كل جانب من السلم غرفتان، غرفة لكل أسرة من عائلة بيت الجاز الكبيرة، غرفة تضم رجلًا وامرأة وبضعة أطفال، بينما يعيش عمها زيزو متنقلًا بين بيوت أشقائه وغرفة أمه في حوش السلم.

لا يعمل زيزو مثل أبيها وعمها الأكبر في توزيع الجاز، لا يربط سرج الحصان إلى العربة ويقف أمام كوبانية الجاز لملء القاطرة، أو يجلس أمام البيطار وهو يعيد تثبيت حدوات الحصان، ولا يركب العربة ويلف بها في شوارع الكفور القبلية لتوزيع

الجاز على المخابز والورش وأصحاب البقالات الصغيرة وبائعي الفول. لا يفعل سوى «السنكحة» كما تقول الأم، ثم العودة مساء لتدخين الحشيش الذي يحصل عليه من عمليات النصب الصغيرة التي يمارسها على الجيران والأصدقاء، أو بالسلف من شقيقيه وشقيقاته. أحيانًا يتطوع لتركيب لمبة أو إصلاح السباكة في بيت أحد الجيران، عمل أيضًا في النقاشة لفترة طويلة قبل أن يمل. كان يعود بملابس ملونة تشع منها رائحة الطلاء، تعجبها الألوان المتداخلة والرائحة فيقربها إليه لتشمه أكثر، يجلسها أحيانًا على حِجره ويقبلها. أحبته لأنه الوحيد الذي يضمها إلى حضنه ويقبلها في وجهها. وأحيانًا ما يجلب لها وحدها بسكويت التمر الذي تفضله دونًا عن بقية أولاد عمومتها.

تناديه «زيزو» بدون عمي كما يفعل أولاد عمومتها، لكن زيزو لم يحمها في تلك الليلة من السحلية، التي تحولت داخلها إلى طفل. ماذا يحدث للطفل؟ وإلى أين سيذهب؟ هل ستخرجه كما تخرج فضلاتها في الحمَّام؟ هل سيسقط في الحمَّام ويذوب في الماء؟ أم هل سيضعونه أسفل التراب مثل صديقتها الميتة وفوقه شاهد منقوش عليه تاريخ واحد، يوم واحد أو لحظة واحدة؟

عبرن المزلقان، والشارع الطويل إلى ميدان ستوتة، ونافورته التي لم ترها تعمل قط، سرن أسفل النفق الذي يخرجهن من الكفور القبلية إلى ميدان المحطة، نظرت إلى ساعة المحطة

فوجدتها تجاوزت منتصف الليل، سارت الأم والعمة بخطوات مسرعة لم تتمكن من ملاحقتهما، ضغطهما على جانبيها، والعباءة السوداء الطويلة التي ألبساها إياها تغطي جسدها كله، تغطي بطنها المتحركة وشعرها وذراعيها وساقيها ووجهها. كادا أن يسقطاها عدة مرات، صرخت من الألم لكنهما رفعاها بعنف إلى الأعلى. تقبض العمة على ذراعها وكأن يدها التحمت به، أما الأم فلا تمسها بيدها، تلصق جسدها بها لتمنعها من التطوح، أو لتخفيها أكثر عن أي عين شاردة يمكن أن تلمحها.

مثل جسم زيزو المنضغط على جسمها في تلك الليلة. تفيق كل بضع لحظات فتراه يلهث فوقها مثل حصان أبيها وهو يخور في الصباح. لم تفهم، ظنت أنه يدغدغ بطنها كما اعتاد أن يفعل وهي صغيرة، لكنها لم تضحك. خافت، غابت، ثم أفاقت لتجده يتحرك بجسمه فوق جسمها الضئيل، والألم.. الألم المتوهج مثل لسعة النار يخترق أحشاءها. بدا وكأن مرمر تحترق. رغم وجع النار إلا أنها لبرهة أرادت فعلًا أن تحترق، مثل روث الحصان الذي يشعل فيه أبوها النار حتى يتحول إلى رماد أمام البيت، ومثل أكوام الزبالة على نواصي الحارات وهي تركض نحو المقابر. لم يتبقَّ منها سوى كومة من الرماد الرمادي، ستتحول إلى شبح رمادي، ستتفتت وتتلاشى وينتهي كل شيء، وستحلق مع الملائكة التي تنزل إلى المقابر في آخر النهار لاصطحاب الميتين

إلى السماء، وربما التقت بصديقتها الميتة، وبكل السحالي التي تتسلل إلى تحت الأرض. والرجال والنساء الواقفون دومًا أمام المستشفى بوجوههم الذائبة، تخاف منهم أحيانًا، لكنها اليوم تحبهم، تحبهم جميعًا إلى درجة أنها ربما ستتحول لتصبح واحدة منهم. غابت مجددًا عن الوعي.

الليلة، توشك مرمر على الغياب أيضًا، توشك على السقوط على الأرض، تمنت لو جذبتها الأرض، أو ابتلعتها داخلها لتتخلص من ضغط جسدي أمها وعمتها، ومن أثر ضغط جسد زيزو على جسدها، إلى اليوم لا تزال تشعر بضغطه فوقها، تشعر وكأنها منتفخة بهواء مكتوم. جلد بطنها مشدود وكأنه سينفجر، سيفرقع مثل البالونات التي يحضرها لها زيزو أحيانًا وينفخها لها بشفتيه ثم يعقدها، فتمسكها هي لتلهو بها، ملمس المطاط الزلق ولعابه المتبقي، يشبهان ملمس بطنها المشدود المبتل بالعرق الليلة.

شارع البحر طويل وهي لا تقوى على السير، تجرها عمتها كما يجر أبوها الحصان عندما يبرك على الأرض رافضًا الحركة في الأيام الحارة. ذراعها ستنخلع، ونهنهات أمها أسفل نقابها الذي تخفي به وجهها تصل إليها مثل عويل النسوة في التُرب. والشارع المظلم إلا من بضعة أعمدة مضيئة على جانبي الجنينة يبدو مثل قبر كبير.

أتت بضع مرات إلى هذه الجنينة مع أمها وعماتها وأولادهن، لعبوا «كهرباء» و«استغماية» بينما تجلس أمهاتهم على العشب يتأملن اللا شيء. كانت تتظاهر باللعب لتتمكن فقط من الركض حتى تنهج وتتصبب عرقًا. تلف حول نفسها مستمتعة بالهواء الذي يلفها. مثل دوامة تغرق فيها، دوامة لطيفة تشعرها أنها خفية للحظات، تصنع دوامات من الهواء أثناء دورانها. تتحد مع النسمات ومع رائحة العشب ونور السماء. في تلك اللحظات ترى الملائكة تحيط بها، تبتسم وتكمل طفوها حولها في كل مكان.

الملائكة تنزل إلى الأرض كل يوم لتأخذ الميتين، وأيضًا لتأخذ شيئًا من كل حي. تأخذ الحزن أو السعادة، الألم أو الراحة، كل إنسان يدفع ضريبة استمراره يومًا آخر في هذه الدنيا. هي نفسها دفعت ضريبتها مرات عديدة، في يوم أخذت الملائكة منها شعورها المستمر بالفرح، تفرح دائمًا بلا سبب، أو لأسباب تافهة مثل عثورها على زلطة دائرية ناعمة شكلها جميل. أو الخاتم الصدئ الذي وجدته في فناء مستشفى الجذام، أو عندما تقطف الورد الطويل الأرجواني من الشجيرة في المقابر وتفتحها لتلحس العسل في متاعها. وتفكر أن هذا عسل الميتين، وكأنها تلحس بقاياهم، وكأنها تعيدهم مجددًا للحياة داخلها.

أخذت أيضًا شعورها بالأمان، بالقدرة على النوم دون أن تخاف. لكن الملائكة ليست شريرة، تقول أمها إن هذا ما يوازن

الكون، بعض الحزن يوازن الفرح، وبعض السعادة توازن الألم، وبعض الشر يوازن الخير. لا يمكن أن يطغى شعور على آخر، لذا منحتها الملائكة أشياء أخرى عديدة، الخيال مثلًا، أن تتمكن وهي راقدة على الأرض مربوطة في قائم السرير من تخيل نفسها في مكان آخر، حياة أخرى لا تشبه حياتها، ولا أي حياة رأتها في سنوات عمرها الثلاث عشرة. حياة ملونة مثل أفلام الكارتون، في حدائق مزهرة ومع حيوانات تتحدث وسماء بها شمس تبتسم وقمر يرتدي قبعة صوفية ويحلم أثناء نومه.

لعل تلك المرة، تأخذها ـ هي نفسها ـ الملائكة إلى عالمها البعيد الممتلئ بكل ما أخذوه من سكان الأرض. لعلها في ذلك العالم تعيش دون تلك الموازنة. دون أن تجبر على تقديم تضحيات لا ترغب فيها من أجل أن تعيش يومًا آخر، ودون أن تجبر على السير بين عمتها وأمها كل هذه الشوارع وهي تموت من الألم، من أجل التخلص من ذلك الكائن الذي ينهش بطنها. تمنت فعلًا لو تأخذها الملائكة وتصعد معها إلى السماء.

الكاتبة

كلما أغمضت عينيها ترى العالم يهوي. ليس هي من تسقط في رؤاها المتخيلة، بل العالم من حولها. الأبنية تتهاوى وكأن أحدهم ضغط زر التفجير، والأشجار، والأعمدة، وأكشاك السجائر، والأسوار العالية، ويافطات الإعلانات الملونة، والكباري والسلالم والسيارات، كلها تغرق في أسفلت ذائب، بينما يذوب الناس داخل ملابسهم، السماء فقط ما ترتفع، وهي معها تهوي لأعلى. يتسارع اندفاعها وتصبح على وشك الاصطدام بالصفحة الزرقاء الملتهبة. تفتح عينيها قبل النهاية.

هي لا تحلم أبدًا بسقوطها المرتفع، تراه فقط في الثواني الضئيلة التي تغمض فيها عينيها، في الطائرة، وفي أتوبيس رحلاتها الطويلة إلى الساحل الشمالي، وفي الندوات المملة التي تحضرها لتجامل أصحابها، وحين تجلس مع الأصدقاء على المقاهي في وسط البلد. أحيانًا، ترى كل شيء بسرعة خارقة بين رمشة وأخرى، تخاف الآن أن ترف بجفنيها، لكي لا تصل في لحظة غير متوقعة إلى الاصطدام النهائي.

لماذا يسقط العالم من حولها؟ من المفترض أن يحدث العكس، أن تسقط هي ويرتفع كل شيء، تسقط حتى تصطدم بالأرض القاسية. الأسفلت الساخن الداكن وبقايا الأشخاص الذين ساروا فوقه، فوق المناديل المكرمشة والكمامات المستعملة وأكياس الشيبسي والبسكويت والتراب الذي يكسو الموجودات كلها بطبقة مزعجة. فكرت في ذلك كثيرًا، كلما وقفت في شرفة عالية، كلما تأملت بدقة الحفر الصغيرة على جانبي الطريق. كلما شاهدت توم كروز وبنيلوبي كروز يسيران أسفل سماء بلون الفانيليا والكراميل في فيلم قديم. كلما صعدت إلى برج القاهرة، كلما شاهدت تسجيلات جنونية لأشخاص منتحرين، كلما تأملت حياتها جيدًا، وكلما استعادت لحظات بعينها، لحظات تافهة ربما، مرت دون أن تحدث أثرًا، تتذكرها وهي تسير في الشارع، أو جالسة في سيارة أجرة، وتحزن، يغص حلقها بالدموع وتعجز أحيانًا عن التنفس. تذكرت مثلًا يوم انقطع سروالها من الخلف في امتحان الثانوية العامة، ولم تستطع التحرك إلى أن همست بالأمر للمراقب فناولها حقيبة ظهرها المتروكة خارج اللجنة لتخفي بها الثقب وتتمكن من العودة إلى البيت. واعترتها نفس القشعريرة الساخنة. كل تلك السنوات ولا تزال تتذكر الألم والصهد المنبعث من وجهها وضحكات البنات. لماذا لا تنسى؟ لماذا لا تنسى الكاتبات؟ ولماذا تتذكر هي كل شيء؟

فكرت في طريقة تبدأ بها روايتها الأخيرة عن تلك الأم وذلك الطفل. لكنها مثل كل مرة تحاول فيها نسج الحكاية، لا ترى أمامها سوى تلك اللحظة، التي أجلستها فيها أمها أمامها وأخبرتها أنها ليست ابنتها الحقيقية.

في السادسة من عمرها صاحت أمها: «عليك أن تعرفي الحقيقة. أنا لم أنجبك من بطني. أحضرناك من الملجأ. لم تكوني أبدًا جزءًا من جسمي». ذكرتها بجسد خالتها المنتفخ بطفل أنجبته بعد تسعة أشهر، وقالت لم يحدث لها ذلك. «أنت لم تخرجي من هنا». وأشارت إلى بطنها.

لم تفهم جيدًا. أومأت برأسها وكأنها تفهمها، والدموع تتكون في عينيها الضيقتين. لكنها لم تستوعب شيئًا. هذه الأم التي تطعمها وتلبسها ملابس المدرسة كل صباح وتحممها وتمشط شعرها ليست أمها؟ هذه الأم التي تستعيد رائحتها كل يوم وهي جالسة في الفصل تنتظر بشوق انتهاء اليوم الدراسي لتعود إلى حضنها، كيف يمكن ألا تكون أمها؟ تستغرب من شكل أمها الأكبر من أمهات صديقاتها في الفصل، لكنها لم تتخيل قط أنها ليست أمها الحقيقية. في تلك اللحظة، شعرت بفراغ كبير يحيط بها. كأنها معلقة في الهواء.

التزمت الصمت. ووجدت فجأة إجابات لأسئلتها الكثيرة التي أمطرت بها أباها وأمها من قبل. مثل تساؤلاتها عن جسد

العصفور الصغير الذي همد فجأة في القفص، إلى أين ذهب بعدما ألقاه الأب في سلة القمامة، وعن عدد النجوم في السماء، وعن الأشخاص المتقزمين داخل التلفزيون، وبالطبع على سؤالها الدائم: «من أين أتيت؟»

هل هذا الأب الذي يقرأ لها القصص كل ليلة، ويصحبها إلى السوبر ماركت ليجلب لها البسكويت واللبن بالشيكولاتة، ليس أباها؟ وتلك الأم التي طالما حكت لها عن معاناتها في إنجابها، وأنها أتت بعد انتظار طويل ورجاء كبير، وعن حكاية اسمها، ليست أمها؟

أسمتها أمها رضوى، على اسم كاتبتها المفضلة، بعد ذلك بسنوات، عندما تنشئ حسابًا مختصًّا بمراجعات الكتب على الفيسبوك، ستقرر أن تقرن اسمها باسم كاتبها المفضل أيضًا. رضوى محفوظ. ليصبح بعد ذلك اسمها على أغلفة كتبها عندما تبدأ في نشرها، وليتحول انتماء اسمها لما تحب فعلًا، أو ما تشعر به صلبًا في حياتها، لا يتغيَّر أبدًا.

لم تذكر من قبل تلك القصة، لم تقل في ندواتها إنها سُميت على اسم رضوى عاشور، ولن تعترف بأنها أيضًا كاتبتها المفضلة، ستحتفظ بكل ذلك كسرٍّ ثمين داخلها، لأنها بعد موت الأم، ستنسى شيئًا فشيئًا وجهها الحقيقي رغم كل الصور، ستستبدل به وجه

رضوى عاشور، وستتحول بشكل ما إلى أمها الحقيقية. ربما لتعاقبها على تلك اللحظة القاسية، اللحظة التافهة، اللحظة التي بررتها أمها بأنها مجرد «لحظة شيطان»، وأنها قالت ذلك لمعاقبتها على تدميرها لرف كامل يحمل الطقم الصيني العتيق الذي ورثته أمها عن جدتها. «بصراحة تستحقين هذا العقاب يا رضوى».

لم تكره أمها ولا أباها، لكن مشاعرها في تلك اللحظة تجمدت. هذه اللحظة المنسية، التي تشعر أحيانًا أنها لم تحدث، لأن أمها لم تتحدث عنها مرة أخرى. ولم يهتم بها الأب أصلًا. بدا أبوها بشكل ما غائبًا، ولم يتح له عمره البقاء طويلًا إلى جوارها. بدا كجد أكثر منه أبًا، بشعر شائب وجسد ضئيل، لم تتمكن من نسج قصص جنونية عنه في خيالها مثل بطلة رواية قرأتها بعد ذلك، أحبت فيها الفتاة أباها بالتبني. لكن أباها لم يكن وسيمًا جدًّا، ولا متهيبًا في التعامل معها، يعاملها كما يعامل أي طفل، بتصنع زائف للمودة، وبتحفظ يجعله لا ينهرها أبدًا إن أخطأت، في ذلك اليوم المشؤوم مثلًا، عاد الأب من عمله لتخبره أمها أن ابنته تسلقت النيش، وأسقطت رفًّا بأكمله يضم طاقم الصيني العتيق. صاحت: «يجب أن تتصرف معها!». لكنه لم يبالِ، حاول تهدئة الأم مرددًا بأنه سيشتري لها غيره، وضع يده على كتف الطفلة وطلب منها الاعتذار لأمها ثم تركها وذهب. هو لا يعاقبها أبدًا إن كسرت كوبًا أو أهملت واجباتها في المدرسة، أو إن اشتكت له أمها منها.

يومئ برأسه متصنعًا الغضب وكأنه يلعب دورًا في مسرحية، يقول بعض الكلمات ليطيب خاطر زوجته، ثم يدخل مكتبه ويغلق الباب، تاركًا إياها مع الأم، وكأنها مسؤوليتها وحدها، وكأنها حيوان أليف قررت الأم تربيته، فقرر ألا يتدخل في جمع فضلاته.

أستاذ جامعي درَّس الأدب الإنجليزي في جامعة طنطا لسنوات طويلة، ثم مات وهي في العاشرة من العمر، تاركًا إياها وحيدة مع أم تجاوزت الخمسين. تبدو مثل طيف. لا تعرف الكثير عن الحياة خارج حيها. تعيش من معاش الأب وإرث صغير مكناها من منح الطفلة ما تريد، درست في مدرسة الأمريكان، وأجادت الإنجليزية والفرنسية، ومارست الرياضة، وتعلمت الموسيقى. كانت رغم كل شيء طفلة مثالية. ضئيلة الحجم ضيقة العينين، تعرف جيدًا ما تريد، تعرف كل شيء سوى ما يشدها حقيقة إلى الأرض، تعرف كل شيء سوى تلك اللحظة الضبابية التي عرفت فيها بأنها مجرد شبح. لم يخرج من بطن أمه. لم ترث عينيها الواسعتين المندهشتين، ولا طولها الفارع، ولا عظم الفكين المربع. لم ترث سوى بيت يضمها، ومكتبة تحتل حائطًا بأكمله في غرفة مكتب واسعة. وحبها للقراءة.

هذا البيت الجميل بيتها. رغم قربه من المقابر إلا أنه جميل جدًّا. أحيانًا تندهش وهي جالسة لتقرأ على مكتب أبيها الخشبي أنها تمتلك كل ذلك. هذه النعمة والنقمة تزعجها. لأنها وعلى عكس

جميع الكاتبات التي قرأت عنهن وكتبت عنهن والتقت ببعضهن، تملك غرفة تخصها. وحياة هادئة في مدينة صغيرة بعيدة عن كل هراء العاصمة. تمتلك حياة يحسدها عليها الجميع، وتحسدهن هي على حيواتهن الممزقة، التي تمنحهن ما يكتبنه. تمنحهن عمقًا أكثر، وتماسًّا مع العالم. تمنحهن هذه الرعشة التي تهتز بها كلماتهن، وهذه النبرة الواثقة التي يتحدثن بها في الندوات والمناقشات، نبرة واثقة تهدد العالم، وتندد به. يتحدثن عن القهر والقسوة والظلم الذي تتعرض له النساء. الفقر والجهل، الجسد واهتراءاته، يتحدثن عن الأمومة والوحدة والرغبة في اكتشاف أنفسهن، حتى الحب والجنس، يصفنه بانكشاف أحيانًا ما يخجلها وهي تقرأهن، يحمر وجهها وتغلق الرواية لحظات لتستعيد أنفاسها. تتمنى لو امتلكت تجارب مماثلة تمنحها هذا الزخم، هذا التوتر، هذه الحياة.

رغم ذلك، كتبت كثيرًا جدًّا، كتبت روايات وقصصًا وكتبًا ومقالات، وبات اسمها معروفًا في تلك الأوساط رغم أنها لم تعد تغادر مدينتها بعد التخرج من الجامعة إلا في زيارات سريعة. خاضت أحيانًا قصص حب باهتة، مع أستاذها الجامعي الذي نسيته بعد التخرج، ثم كاتب كبير اعتاد أن يقابلها أحيانًا لمناقشتها حول رواياته على مقهى زهرة البستان في وسط البلد، ثم كاتب شاب حاول التقرب إليها لشهور وعندما سمحت لنفسها أخيرًا

أن تقابله في مقهى ريش طلب منها مرافقته إلى بيته فغادرت غاضبة، حظرته على الفيسبوك وكل وسائل التواصل الاجتماعي. لكن هناك قصة حب واحدة كبيرة في حياتها، كبيرة جدًّا إلى درجة أنها تعجز أحيانًا عن استعادة تفاصيلها، تبدو مغلفة بضباب كثيف في أعماق ذاكرتها، رغم أنها كلما تذكرتها، نبض كل جزء من جسمها بنبضات جنونية، وكأن جسدها يعجز عن استعادة ما حدث، أو يرفضه. نفس الشعور الذي يعتريها كلما فكرت بأنها لم تخرج من تلك البطن. بطن أمها التي نامت فوقها أحيانًا كثيرة، وتأملتها في المرآة وهي جالسة على السرير بينما ترتدي أمها ملابسها، ونظفتها بإسفنجة مبتلة بينما ترقد الأم على الفراش، غير قادرة على الحركة، بعد أن تجاوزت السبعين وباتت لا ترى من الحياة سوى ثقب ضيق. مكتبة سُر مَن قرأ

مات الأب ذات صباح بأزمة قلبية، لم يستغرق الأمر ثواني، كان يسير في الردهة متجهًا إلى الحمَّام ثم سقط، عندما وصلت سيارة الإسعاف كان كل شيء قد انتهى، لم تتمكن من وداعه، أو سؤاله إن كان أحبها حقًّا؟ إن كان يعتبرها أكثر من مجرد كلب أو قطة أو عصفور في قفص؟ لم تره حتى يوم موته، ذهبت إلى المدرسة، وعندما عادت لم تجد في البيت سوى أمها وبعض نساء من العائلة وزميلين لأبيها في الجامعة، حتى العزاء الكبير الذي أقامته العائلة له في دار المناسبات لم تحضره، قالت الأم

إنها أصغر من حضور مآتم، لكنها شعرت بأنها لا تستحق حضور عزاء رجل لم تعرفه جيدًا، لا تتذكر رائحته في عناق، لا تتذكر أنه عانقها فعلًا ذات يوم، كان يقبلها على وجنتها عندما تنجح في المدرسة، أو في أعياد ميلادها، قبلتين سريعتين متوترتين ومبتلتين، ثم يربت على كتفها وهو ينظر بطرف عينه إلى أمها، وكأنها فتاة غريبة، خطر ما يهددهما. بعد أسبوعين من الموت، عادت حياتها إلى وتيرتها السابقة، لم يتغير شيء، ولم تضطر الأم إلى دخول عراكات على الإرث والبيت، لأنه نقل كل شيء باسم زوجته قبل أن يرحل. ثم نقلت الأم كل شيء باسمها هي لحمايتها من مشاكل الإرث الكثيرة التي يمكن أن تحدث لابنة وحيدة.

موت أمها كان أكثر قسوة، لأنها عاشت معها أعوامًا إضافية تغير فيها كل شيء، نسيت فيها ذلك الشعور الذي سيطر عليها لفترة بأنها ليست أمها الحقيقية، اسم الأم لا يتصل بها فعلًا، فلم تضطر لرؤيته باستمرار، في بطاقتها الشخصية ورخصة السيارة وحسابها البنكي وجواز سفرها مثل اسم أبيها. أمها هي تلك المرأة التي تعيش معها، وتشاهد معها التلفزيون كل مساء، وتعد معها العشاء أحيانًا. عندما يقفان في المطبخ تنسى تلك اللحظة البعيدة، وتستمع باهتمام إلى حكاياتها، تحدثها الأم عن خالتها التي لا تتصل بها إلا للشكوى من العمل أو الأولاد، أو الفتاة التي تنظف لها البيت، أو تسألها عن آخر رواية قرأتها، تطلب منها

أن تحكيها لها لأنها لم تعد قادرة على القراءة بعينيها المتعبتين، لم تتوقف عن النظر إليها بنظرات أم حقيقية، أم حقيقية؟ ما الحقيقة وما الزيف؟ لن تعرف لأنها لم تخض التجربة وربما لن تخوضها أبدًا، لن يمتلئ بطنها بطفل حقيقي ولن يخرج من بين ساقيها فتشعر بالفرق.

دخلت أمها ذات يوم إلى غرفة نومها ولم تخرج. لم يقدم لها الأطباء شيئًا، لا علاجًا ولا تشخيصًا، قالوا إنها الشيخوخة، قالوا إن هذا ما يحدث للإنسان، يعلن جسده أخيرًا أنه اكتفى، يرقد الجسد للمرة الأخيرة على فراش ويهمد. لم يفعل الأطباء سوى ما يفعله أي شخص يتأمل الموت: الانتظار.

في تلك الشهور الأخيرة وأمها راقدة في الفراش، حاولت أن تفهم أكثر، سألتها هل تعرف أي شيء عن عائلتها الحقيقية فاندهشت الأم، قالت أنا عائلتك الحقيقية. بدا أنها نسيت بالفعل تلك اللحظة، أو أنها تكذب؟ لا تريد إخبارها بأي معلومة عن عائلتها، كي لا تنساها بعد موتها، كي لا تختفي فعلًا بعد الموت دون أثر. ربما هذا ما جعلها تذهب إلى الملجأ ذات يوم بعيد، لتختار طفلة، ثم تسير طريقًا طويلًا جدًّا من الإجراءات الروتينية المملة والصعبة لتنجح في إقناع النظام والموظفين والدولة والعالم أنها تصلح لاقتناء تلك الطفلة، ثم إقناع العائلة والزوج والأصدقاء والجيران بأنها طفلتها فعلًا. أرادت أمها إنسانًا يتذكرها بعد موتها، لا يمكن أن تتخلى عن ذلك.

لم تتمكن من مجادلة الأم بسبب حالتها الصحية، لكنها اندهشت من كذب امرأة تحتضر، هي بالتأكيد تعرف شيئًا لكنها لن تخبرها أبدًا. كيف يمكن لإنسان يموت أن يكذب؟ الموت هو نهاية الواقع، الواقع المكوَّن من أكاذيب صغيرة لن تظل مهمة بعد تلاشيه.

ظلت إلى جوار أمها إلى أن ماتت ممسكة بيدها، تأملت وجهها وهو يبهت شيئًا فشيئًا، لم تتكلم في لحظاتها الأخيرة، نظرت إليها وتشبثت بيدها، وبدا لها الموت عملًا شاقًّا كعنوان رواية قرأتها، شاقًّا وحزينًا ولا يمكن مشاركته، لا يمكن لأحد أن يخفف الموت على أحد، ليس بيدها شيءٌ لتفعله سوى التمسك بيد أمها التي يخف تشبثها بها، استدارت بعينيها إلى مرآة التسريحة بجوار الفراش، فلم ترَ سوى نفسها، بدا لها السرير خاليًا من جسد الأم، مجرد مساحة منخفضة فارغة، اقشعر جسدها وتجمدت لحظة، وعندما عادت بعينيها إليها وجدتها قد غادرت.

الرواية

لا تحلم يُمنى سوى بثعابين تطاردها، أحيانًا تستيقظ من النوم وفي يدها ألم عضة، أو على ساقها ملمس جلد لزج، تستيقظ وهي تشهق، وتظل في فراشها ترتجف لبضع ثوانٍ.

حلمت بأنها في البيت القديم، تمسك ثعبانًا أصفر بيدها، حاول التملص لكنها أحكمت قبضتها أسفل رأسه وضغطت، قبل أن يستسلم تمامًا اهتز ذيله، تحول إلى رأس آخر أخضر، انثنى لأعلى وعض يدها، استيقظت والألم يحرقها.

حلمت أيضًا بباب غرفة أمها القديمة مواربًا، اقتربت منه، فرأتها تجلس على السرير وتبتسم، كانت صغيرة وجميلة، قبل أن تبادلها الابتسام، سقط الثعبان من السقف بينهما، أبيض وهزيلًا، زحف بسرعة خلف الدولاب، لكن أباها ظهر فجأة، انتظره على الجانب الآخر، وهوى بالحذاء عليه، مرة ومرتين وثلاثًا، حتى توقف عن الحركة، وتوقفت يُمنى عن الصراخ، نظر أبوها إليها وقال: لا تخافي، لكن خلفه، كان يزحف ثعبان آخر، ضخم جدًّا

وأخضر، لم يره أحد سواها، صاحت فبدأ الهجوم من ثعابين كثيرة، وقف أبوها أمامها يقتلهم بثبات وكأنه يؤدي مهمة روتينية، فنفضت خوفها وأمسكت بحجر وضربت ثعبانًا على رأسه، قتلت الكثير، لكن الثعبان الضخم الأخضر هرب من جديد.

بعد تلك الليلة في غرفة طبيب الأسنان، اختفت الثعابين فجأة من أحلام يُمنى، بات نومها بلا أحلام، نوم ثقيل أسود، تستيقظ مرهقة لكن بلا خوف. حتى رأت الخطين الداكنين في التحليل.

زحف الثعبان الأخضر متماوجًا على سرير الكشف، لم يكن ضخمًا، كان صغيرًا ومبقعًا بالنقاط البنية، أقرب لثعابين الكرتون، يدخل ويخرج لسانه، ينظر لها ويكمل سيره، كأنه يريدها أن تتبعه، نظرته لم تفزعها، بدا وكأنه يسخر منها.

سارت خلفه، خطوتها بطيئة، قدماها ثقيلتان وصوتها محتبس، خارج الغرفة لم يكن ثمَّة شيء سوى الفراغ، أبيض وثقيل وكأنه بحر من العجين، ظل الثعبان ثابتًا أمامها، وظلت ثابتة أمامه، لم تقتله، استيقظت من النوم.

الكاتبة

ثمَّة شعور ما يقبض على عنق رضوى، شعور بالرغبة في البكاء وكأنها تتحرق شوقًا لشيء لا تعرفه. ورائحة تشبه رائحة منعم الملابس الذي يضاف على الغسيل تزكم أنفها منذ الصباح، لماذا تطاردها هذه الرائحة؟ لم تعد تشمها منذ وقت طويل، لم تعد تتذكرها حتى منذ قررت أن تتوقف عن التذكر. لماذا اليوم تهب عليها بهذه القوة، وتجبرها على العودة إلى نقطة ماضية تريد إلغاءها.

قلبها منقبض لكنها ليست حزينة، لم يعد شيء يحزنها، لا موت والديها، ولا وحدتها ولا شعورها بأنها لم تخرج من بطن إحداهن. تشعر بأنها شبح، لا تمس الأرض، تسير وكأنها معلقة في الهواء، لا تشعر بالموجودات تمامًا، تأكل وتشرب وتنام وتحلم وتدخن وتسهر وتقرأ وتكتب دون أن تغوص تمامًا في أي شيء. ثمَّة إحساس باللذة تفتقده، اللذة أو المعنى؟ معنى ما طرأ على عقل بطل آخر في رواية أخرى، وهو يقف أمام لوحة

عادية لمنظر طبيعي في عيادة طبيب، ليدرك أنه غير قادر على الشعور بالسعادة. ربما اختزل مشاعره كلها في بحثه عن لحظة فرح. لم يكن يبحث عن الفرح أو الحب أو المغامرة أو التحقق، ولا حتى يبحث عن نفسه، يتوق لشيء ما أكبر، شيء لا يمكن تفسيره أو لمسه، هو تلك اللحظة العارمة من الغوص في قلب كل شيء. الغوص في قاع كوب من الشاي، الغوص في أشعة شمس يوم دافئ، الغوص في ندى الصباح ورائحة الخضراوات، الغوص في رذاذ نافورة في ميدان يتناثر ليصل إلى الوجه واليدين. ثمَّة لحظات عابرة لا يمكن وصفها، ولا يمكن تفسير أهميتها، لحظات تتراكم لتكوِّن ما يمكن أن نسميه فعلًا حياة.

حياة حقيقية، هذه الكلمة تستفزها، حقيقية.. يا سلام.. ماذا لو أن كل تلك الحيوات الحقيقية من حولها مزيفة؟ وحياتها المزيفة هي الحقيقية؟ مثل الروايات التي تمنحها قصصًا مزيفة تتحول في عقلها إلى الحقيقة ولا شيء سواها. تساءلت لو كُتبت قصتها ذات يوم كيف ستكون؟ رواية أجيال؟ أم رواية فصول؟ في كل فصل رواية جديدة، تحكي فيها رجالًا ونساء ودروبًا وأزقة وصراعات وأصواتًا. تمنح نفسها بها الخلود؟ أن تتحول كل حياتها إلى حكاية واحدة قرأتها في رواية أقدم، عن الرجل الذي أضاع حياته في العزلة خوفًا من الموت، ثم مات منبطحًا على وجهه في حوض شرب الأحصنة.

يهرب من الموت كما هرب جلجاميش من قبله. بنى مئذنة طويلة.. طويلة.. ابتعد عن الحب والفن والشعور بالحياة، لم يعش الحياة التي يعشقها حقًّا. ارتجف جسمها، يا لها من مأساة، أن تحب الحياة إلى درجة الزهد فيها، أن تعيش وتعيش دون أن تعيش حقًّا. خاف الآشوريون من الموت أو احتقروه، لأنه مجرد ظلام ينتهي إليه الجميع، لم يؤمنوا مثل الفراعنة بأن الموت هو الحياة الحقيقية. أضاع الفراعنة حياتهم في التأهل للموت، وأضاع الآشوريون حياتهم في الهرب منه. شيء مضحك عندما تتأمله جيدًا. الحياة التي نعيشها، الحاضر نفسه، تلك اللحظة التي تتقدم في كل ثانية لتصبح ماضيًا، لن تعود أبدًا.

لكنها كلما استعادت اللحظات المتوترة مع الأب الطيف، وملامحها التي لا تشبه أبويها، وشعورها الدائم أنها معلقة في الهواء، ينقبض جسدها كله، ثمَّة تشنج ما يسيطر على كل عضلاتها، ثمَّة شعور بأن حذاءها مليء بحبات الرمال الدقيقة. المشكلة أنها في قرارة نفسها مهتزة، الأمر كله يبدو ضبابيًّا، مثل الرواية بالراوي غير الموثوق فيه. لا تعرف هل هي تبالي فعلًا أم أنها تضخم الأمر. لأنها وبعد أن خرجت تلك الجملة من فم أمها، لم تحزن أكثر من دقائق ثم نسيت كل شيء، عاشت طفولتها العادية ومراهقتها العادية وشبابها العادي حتى قررت أن تصبح كاتبة، فاستعادت كل شيء فجأة.

ربما من أجل أن تكتب، تضفي على حياتها قصة درامية كاذبة. من أجل أن تكتب، تعيد تشكيل الواقع. من أجل أن تكتب هي قادرة على التخلي عن أبويها اللذين رباها، قادرة على تحويلهما إلى غريبين، إلى أبوين مزيفين، إلى تأويل أي جملة، أو تصرف، أو تلميح إلى حكاية مرعبة، إلى مجاز وتورية ووصف وسرد وحبكة وذروة وتنوير ونهاية، قادرة على تحويل النظرات إلى لغة، والمشاجرات إلى ميلودراما، والضحكات إلى مفارقات.

من أجل الكتابة ستتقمص حياة أخرى قاسية رغم أنها لم تعانِ، وستتحول شيئًا فشيئًا إلى امرأة أخرى، وستكون صادقة جدًّا، وهي تتحدث في حفل إطلاق الرواية، عن اكتشافها لحقيقة بنوتها الزائفة، وستبكي وهي تقول إنها عانت كثيرًا، وإن الكتابة محض ألم. مثل الحياة مجرد ألم مستمر تتخلله لحظات خفيفة من اللاشعور. إن الكتابة هي شعور دائم بالسقوط.

مكتبة
t.me/soramnqraa

الرواية

لن تخبر يُمنى أحـدًا، لا الطبيب الوسيم في غرفة عيادة الأسنان، والذي سمعت صوته وهي تمر للوصول إلى غرفتها ولم يثر فيها شيئًا. تتذكر ذلك اليوم بصعوبة، لحظة طرقت بابه بعد انتهاء العمل وانتهاء تدفق المرضى واستئذان المساعدة وموظفة الاستقبال للذهاب بسبب تأخر الوقت، أخبرته أن عليهما الذهاب وتولي مهام الموظفة، مثل إطفاء الأنوار وفصل الأجهزة وإغلاق الباب. فدعاها للدخول بينما يجلس منهكًا على مقعد مكتبه.

لم يشبه نور الشريف يومها، كان يشبه ممثلًا آخر ظهر لفترة ثم اختفى لا تذكر حتى اسمه، بعينين ضيقتين وشعر هائش وابتسامة حلوة. سألها الطبيب عن صحتها، وعن حياتها، وأبدى إعجابه بمنشوراتها على الفيسبوك، التي تكتب فيها مراجعاتها لأفلام ومسلسلات رومانسية. تعجبه أفكارها وتأويلاتها للعالم والحياة عبر الأفلام، ويعجبه أيضًا احتفاظها بهذا النقاء الذي يجعلها تندهش من سفالات البشر في السينما، والتي هي واحد على ألف من سفالاتهم في الواقع.

حاولت إخفاء سعادتها، بمعرفة أنه يتابع كتاباتها لكنها عجزت عن ذلك. وبدأت في كتابة منشورات أكثر على الفيسبوك وكأنها تخاطبه هو، منشورات تبرز أكثر رومانسيتها ونقاءها. في الليالي التالية، ولمدة شهر كامل، سيتعمدان التأخر في الكشوفات والعمل لساعة متأخرة حتى ينفردا ببعضهما بعد ذهاب الجميع، يجلسان ليتحدثا ويشربا الإسبريسو الذي يعده بماكينة صغيرة جلبها معه. يتناقشان في السينما والدراما والروايات. وسيبدي دومًا إعجابه بشيء جديد فيها، فستان، حقيبة، حجاب، بعينيها وكأنه يراهما لأول مرة، بابتسامتها، بطريقتها في نطق كلمة عادية مثل «ميرسي»، أو «حلو جدًّا».

تحول هذا الطبيب إلى هدفها الجديد الذي يجب أن تناله، نجح في استلاب عقلها لأيام من عوالم خيالها إلى الواقع، سقطت يُمنى في الواقع، كما ستسقط اليوم طفلها المختفي داخل رحمها، وستحمل بقاياه إلى المقبرة وتدفنها بيديها، لن تطلب عوضًا، لكنها ستطلب حياة جديدة، ستطلب حياة تتخلص فيها من تلك اللحظة، لحظة اشتعال مرمر أمام عينيها، لحظة أن ابتسمت لها وهي تشتعل. لماذا ابتسمت لها بالذات؟ لماذا لعنتها بحياة لا تستطيع أن تعيشها؟ لن تعرف أبدًا. ولا تريد أن تعرف، تريد فقط التخلص من تلك اللحظة ومن ذلك الطفل. ليس فقط لأنه ابن لحظة عابرة مع رجل عابر ليس زوجها، لكن لأنها أيضًا لا تريد أطفالًا، لا تريد

أن تحمل طفلًا داخلها ثم تخرجه إلى الحياة، لم ترد أبدًا الأمومة، ولا تندم على شيء قدر ندمها على إنجاب طفلتها.

لكن طفلتها الأولى، التي نجت من أفكار أمها وخططها التي لم تتوقف طوال شهور حملها التسعة لإنهاء حياتها قبل أن تبدأ، والتي باتت كائنًا حقيقيًّا من لحم ودم وملامح وشعر وصوت ويدين وقدمين، لا يمكن التخلص منها. لا يمكن أن تدفنها في مقبرة. ستظل ماثلة أمامها، ابنتها، حدبتها، الشيء الذي ستحمله فوق ظهرها طوال العمر. والتي أنجبتها دون أن تعي فعلًا ما يحدث. دون أن تفهم فداحة ما فعلت، أن تجلب إنسانًا إلى حياة لا تفهمها ولا تحبها، أن تسير هكذا مثل دمية بلا عقل في مسار لم تختره. حتى إنها إلى اليوم، تحاول تذكر مشاهد بعينها، مثل لحظة ارتدائها فستان الزفاف، أو دخولها إلى قاعة العرس، أو لحظة أن لمسها زوجها لأول مرة، لحظة أن رقدت على ظهرها وهو فوقها، يقحم نفسه داخلها، ولا تتذكر. لا تتذكر تحولها من شخص إلى آخر، من فتاة حالمة تعتقد أن قصص الحب تنتهي بقبلة ثم يختفي الحبيبان، يتلاشيان، لا يلج الحبيب حبيبته في ظلام غرفة، ولا يضغطها بجسده على سرير ناشف. لا تتخيل أن أنور وجدي وليلى مراد فعلا ذلك، شادية وصلاح ذو الفقار؟ عمر الشريف وفاتن حمامة؟ يستحيل أن تتخيلهم، كما يستحيل عليها اليوم أن تتذكر تلك اللحظات.

حتى لحظة الولادة لا تتذكرها، ولا أيام الحمل، تتذكر الإنهاك وحرقة المعدة والهبات الساخنة والغثيان، تتذكر قلة النوم والبكاء والرغبة في الهرب بعيدًا حيث لا يجدها أحد، لكنها لا تتذكر لحظة الولادة، ولا أول مرة رأت فيها وجه طفلتها. هذا يؤلمها جدًّا، لأنها عاجزة عن تذكر وجه طفلتها عند الولادة. أحيانًا، وهي منهمكة في مسح أجسام النساء بجهاز الليزر، وإطلاق نبضاته اللاسعة على مسامهن، تشعر أنها نسيت وجه طفلتها، نسيت ملامحها. لا تفتقدها حتى، لا تشعر أنها أوحشتها، أو أنها تشتاق إلى رؤيتها، يمكنها أن تظل مكانها هكذا ساعات طويلة دون أن يرتجف قلبها من الاشتياق، كما ترى بقية الأمهات وهن يتحدثن عن أطفالهن. يمكنها حتى أن تتركها وتهرب، أحيانًا تتخيل موت الطفلة، هل ستشعر بالحزن أم الخلاص؟ هل ستتمكن من الحياة بعدها؟ هل ستشعر بالذنب؟

المشاهد التي يعرضها الفيسبوك كل يوم من حول العالم، لأطفال ميتين، وأمهات يجثون أمام الأكفان، أو يصرخن أو يبكين، أو يبحثن عن أطفالهن بين الجثث في المستشفيات المحترقة المهدمة، تبكيها ربما أكثر من فكرة فقدان طفلتها هي. لا يمكن أن تنسى المقطع الصوتي لبنت ظلت في سيارة محاصرة بين الجثث تتوسل أن ينجدها أحدهم حتى ماتت. تذكرت أيضًا وجوه الأطفال المرتجفين، والعيون المتجمدة، كل الحروب

التي لا تنتهي منذ ولدت إلى اليوم، وكل هذا الألم، لماذا يخترقها أكثر من ابنتها الحقيقية، التي تستطيع لمسها وضمها وتقبيلها؟ لماذا تعجز عن الشعور بالأمومة؟

يبدو أنها مريضة، تفتقر إلى العاطفة، ربما سيكوباثية، لا تملك أي تعاطف مع المجتمع. شاهدت في مسلسل أجنبي طبيبًا نفسيًّا يقول إنك لو رأيت شخصًا يتثاءب ولم تفعل المثل لكان هذا دليلًا على شخصيتك السايكوباثية، لأن عدوى التثاؤب تحدث نتيجة للشعور الطبيعي بالتعاطف داخل الإنسان. لا يعديها التثاؤب أبدًا، تظل محدقة في وجه محدثها وهو يتثاءب عشرات المرات. لا يمكن أن تكون أمًّا.

ستتخلص من الطفل القادم وستطلب الطلاق من زوجها وتترك له الطفلة، وتبتعد عن تلك المدينة التي تأكل روحها، ستبتعد عن بيت الجاز وكوبانية الجاز ومستشفى الجذام والمقابر وحتى العيادة التي تعمل بها وتشغل داخلها مكتبًا ضيقًا مكيفًا، به أريكة جلدية ترقد عليها النساء منفرجات الساقين، يؤهلن فروجهن لاستقبال مني رجل ما، ليحصلن على أطفال جدد داخلهن، يطلقنهم إلى الحياة ثم يعدن لإصلاح ما أتلفه الخروج. ليحصلن على أطفال آخرين.

ستذهب إلى مكان بعيد، وستعمل في مهنة جديدة، تتخيل أنها بائعة في محل ملابس في وسط البلد، تنهي عملها وتركض للحاق

بالمترو الذي سيحملها إلى سكن مشترك في منطقة شعبية. أو موظفة استقبال في فندق ما، سيقع في غرامها رجل أعمال وسيم ينتشلها لعالم جديد ملون. أو سائقة أوبر تستمع إلى حكايات الناس وتقص عليهم أيضًا حكايتها. أي شيء يجعلها تنسى تلك اللحظة التي تطاردها، وذلك الثقل الذي تشعر به كلما رأت طفلًا، وكلما رأت امرأة ببطن منتفخة.

في هذه المقبرة ستدفن حياتها، ستمنحها قربانًا للنسيان، ومن أجل شيء جديد لا تعرفه لكنها تريده جدًّا. وكأنه حياة أخرى انتزعت منها.

كل هذه الأفكار التي تمر داخل رأسها وهي تسير من بيتها إلى المستشفى، والتي لم تنفذ شيئًا فيها حتى تلك اللحظة، بدت مجسمة وكاملة أمامها ذات ليلة، عندما أوقعت طفلتها علبة «الخرز» على الأرض، ووقفت صامتة أمامها وهي منحنية على أربع، تجمع القطع المتناثرة على السجادة وأسفل الكنبة والمائدة، بينما يجلس زوجها على مقربة منها يشاهد التلفزيون، ويتحدث عن تربيتها السيئة للطفلة. لم تسمع نصف كلامه، ركزت في إعادة تصنيف الخرز وهي تعيده إلى العلبة، الحبات الحمراء معًا والخضراء معًا وتلك التي على شكل أحرف إنجليزية معًا، شق الألم طريقه من ركبتيها إلى قلبها وظهرها ورأسها، وتمنت لو تناثرت هي على الأرض في تلك اللحظة بدلًا من حبات

الخرز. بينما تتطلع لها الابنة بنصف شعور بالذنب ونصف شعور بالأمل لأن تعيد لها علبتها دون عقاب. لم تعاقبها، ولم ترد على زوجها الذي لا تعجبه تربيتها للطفلة، ولا عملها الذي يستهلك نصف يومها، ويجعلها زوجة مهملة لا تدلل زوجها الذي يشقى طوال الشهر في عمله الخطير البعيد، ولا طبيخها الذي بلا طعم على عكس طعام أمه، ولا شكلها الذي بات عاديًّا، بملابس باهتة وطرحة ملفوفة حول شعرها الذي تنسى حتى تسريحه، وجسمها الذي استهلكه الحمل والرضاعة، ببطنها التي ترهلت وثدييها اللذين تهدلا لتمنحه طفلة صحيحة يتباهى بها أمام عائلته، وينتظر طفلًا آخر ليحمل اسمه، ويأخذ ما تبقى من روحها وجسمها.

الحقيقة

لم يعد زيزو إلى بيت الجاز منذ ذلك اليوم الذي صرخت فيه أم مرمر ولطمت ابنتها على وجهها، اجتمعت العائلة كلها لبحث مصير البنت، فتسلل هو من البيت دون أن يلحظه أحد، لا أحد يلاحظه أصلًا، هو دائمًا كائن خفي، لا رأي له ولا وجود ولا هيبة. ربما هو فعلًا غير مرئي، لأنه يسير في الشارع فلا ينظر أحد إلى وجهه، يفوِّته محصل الأتوبيس دون أن يسأله عن تذكرته، ولا يوقفه رجل أمن لمراجعة بطاقته. حتى أصدقائه، يجلس معهم على القهوة فلا يوجه أحد إليه كلامًا، لا أحد يأتمنه على سر ولا يصحبه لمعاكسة البنات الخارجات من الجامعة العمالية ومن مدرسة طنطا الثانوية. هو أيضًا ممنوع من ركوب العربة واللف على الشوارع لبيع الجاز ـ حتى الحصان لا يحترمه إن شد لجامه أو صاح فيه «حا»، أو لسعه بالسوط. ثمَّة شيء «طري» فيه كما يقول أخوه الأكبر. لا يريد أن يقول «منسوِن» لكنه يتخيله وهو يقولها في سره، ربما «خول». غير فالح في شيء، لا تعليم ولا صنعة ولا قوة

بدنية تجعله قادرًا على البلطجة على الحارة وأهل البيت والتجار أمام كوبانية الجاز، وليس لديه وجه وسيم يسمح له بالسفر إلى القاهرة والعمل في المقاهي الفاخرة مثل حسين ابن هدى بائعة الفاكهة على الناصية، ولا يملك مليمًا يدفعه ويهج من البلد للأبد كما فعل صديقه وليد السيد، وبات الآن موردًا كبيرًا للسيارات الملاكي من كوريا. كوريا؟ وليد في كوريا التي لا يعرف أصلًا أين تقع على الخارطة، بينما يهرب هو من بيته لكي لا ينظر أخوه في وجهه ويفهم كل شيء. أين كان عقلك يا زيزو وأنت تفعل ذلك بالعيِّلة الصغيرة؟ البانجو طير عقلك كما تقول أمك، لكنها لم تتخيل قط أنه سيطيره إلى هذا الحد، أن تفيق لتجد نفسك فوق البنت الصغيرة، رأسها لا يصل لمستوى رأسك. لماذا لم يأخذك عقلك إلى نادية في الحارة المواجهة، لم تصدك من قبل، تأخذ ما فيه النصيب وتسكت سواء نجحت في مضاجعتها أو فشلت فتسخر منك قليلًا ثم تصنع لك كوبًا من الشاي تشربه وتذهب. ما الذي سوله لك شيطانك ليلتها؟ «يلعن ديك مخك»، تصيح وأنت تضرب رأسك بيدك وتركض، تركض من ماذا؟ لا أحد يراك، لا أحد عاتبك. ستعود إلى البيت في نهاية اليوم وسيكون الجميع قد فهم ما حدث، لكنهم لن يوجهوا لك كلمة، لا يخافون منك، لكنهم يحتقرون عتابك. هذا هو اليأس يا ناصح، اليأس من «خراك»، أنت لا شيء وستظل لا شيء، تافه فعلًا.

عيل عبيط رغم أنه لا يفصله عن عقده الرابع سوى بضعة شهور، يعمل في السباكة أحيانًا، وفي النقاشة أحيانًا أخرى. «والله كنت جيدًا في النقاشة لكنك غبي، اتبطرت على النعمة. كنت تتظاهر أنك فنان، تمزج ألوان الدهانات وتمعجن الجدران وتدور بالرول على الوزرات والسقف، لماذا هجرتها؟ لأنك خول فعلًا».

يكتب اسمه على جنب الحائط وكأنه رسام، مثل الرسام الذي يجلس لرسم وشوش الناس أمام المحكمة ويضع اسمه على جانب اللوحة. تمنى لو رسمه مرة، ربما ساعتها يراه شخص ما، يراه مجبرًا لأنه سينظر إلى وجهه وينقله إلى الورق، سيدقق في ملامحه، في أنفه الطويل وشفتيه الغليظتين وشعره الخواتم، سيرتدي القميص البنفسجي ويفتح صدره لتظهر السلسلة من الذهب الصيني التي اشتراها لنفسه وزعم أن ليلى ابنة بائعة ورد التُرب هي من أعطتها له، ربما سيضع إصبعيه على خده وكأنه يفكر، يفكر في ماذا؟ نسي ما يفكر فيه حالًا.

ربما عليه أن ينسى فعلًا، بعدما ضيع البنت الصغيرة، عليه أن ينسى وينسوا جميعًا، وهي أيضًا ستنسى، عيِّلة لا تفهم شيئًا، ستنسى وستعالج أمها الأريبة الوضع، وأخته نجاة أيضًا، هي تفهم في تلك الأمور. لكن البت حامل.. حامل من عمها. يعني ابنها هو حفيد شقيقه وابن أخيه أيضًا، شخر ضاحكًا، ما هذه اللخبطة؟ الناس

جرى لها إيه؟ «يبدو أن القيامة ستقوم»، يقولها لنفسه وكأنه ليس المجرم، وكأنه ليس من أقام القيامة فعلًا، لكن نجاة ستتصرف، نجاة نزلت عيال ميتين ياما من بطون أمهاتهم في الحارة وتعرف كيف تتصرف مع أمور النسوان تلك. كل بيوت الحارة مدفون أسفلها العيال الذين أسقطتهم نجاة من بطون أمهاتهم.

«حارة نجسة..»

يفكر وهو يشعل سيجارة، تستحق تلك الحارة كل القرف الذي يحدث فيها، ثم إنه يعرف أسرار كل البيوت، بما فيهم بيت الأستاذة المواجه لبيتهم. والتي تدير وجهها كلما صادفها داخلًا الحارة بينما تخرج هي منها، وابنتها أم نضارة التي لا تحادث أحدًا وتقف في الشرفة تتأمل السماء، لا تنظر نحوه أيضًا، أو تنظر نظرة زجاجية بلا حياة، وكأنه لا يسمع بكاءها كل ليلة بينما يضرب أبوها أمها، على الأقل هو لا يضرب النسوان. لو رفع أحدهم عينيه في وجهه سيعطيه ما فيه النصيب، وسيفضحه ويجرسه في المنطقة كلها حتى يطفش منها.

«يلعن أبو الكل، كل هؤلاء لم يخيبوا خيبتك يا زيزو. أنت خائب دومًا، ماذا ستفعل في حياتك؟ تستمر في السنكحة طوال اليوم في الحارات وفي التُرب تتلصص على النسوان اللاتي يمزقن عباءاتهن على الصدر ويخلعن الطرح أمام القبور؟ ثم تذهب

«لتقضي» خزين يكفيك ليلتين، تقضيهم متدهول أمام التلفزيون أو نائمًا على الأرض بجوار سرير أمك. ثم؟»

حاول أن يتذكر بقية يومه فلم يجد شيئًا، لا يفعل شيئًا فعلًا طوال اليوم، طوال الأيام. أيامه تمضي بلا شيء، اليوم مثل أمس مثل بكرة، لا يتذكر عمره، لا يتذكر سوى مشاهد متفرقة من حياته بلا معنى ولا طعم حتى إنها بلا أهمية للذكر، لا شهادة ولا جيش ولا عمل ولا نسوان ولا عيال ولا هواية يحبها غير التدخين ومشاهدة الأفلام الأجنبية على إم بي سي ٢، هذا ليس مكانه، يجب عليه التفكير جديًّا في مسألة السفر للخارج، عليه أن يسافر إلى كوريا عند وليد ويكسر الفيزا ثم يعمل معه، أو يعمل في أي بلاء أزرق. نعم، بعدما ينتهي موضوع مرمر عليه أن يهج من هذا البلد.

الآن لا يجب عليه فعل شيء سوى السير في الشوارع إلى أن يحل الليل، أو ربما الجلوس على أي مقهى في المنطقة والتظاهر بمتابعة ماتش الأهلي. «لا شيء سيصيبك. أنت محمي بتفاهتك يا زيزو. أنت خول فعلًا، الخولات لا يعاقبون». أضحكته الفكرة، فتكرمش وجهه بشبه ابتسامة، وضع يديه في جيبي سروال الترينج وسار على الطريق الترابي إلى مزلقان السكة الحديد. سيسير فوق القضبان كما اعتاد منذ صغره رافعًا يديه إلى جانبيه مثل لاعبي الأكروبات في السيرك، ثم سيقفز إلى رصيف المحطة، وينزل

من السلالم إلى الأسفل ليخرج على ميدان المحطة مباشرة، تمنى لو ركب القطار وابتعد عن كل هذا، عن المدينة الميتة وهوائها المتربَّب ورائحة الجاز في البيت التي دمرت أنفه وأفقدته القدرة على الشم، ورائحة روث الحصان ورائحة أمه التي لا تستحم إلا كل شهر مرة، ورائحة العيال ولاد إخوته ورائحة كل هذا الخراء. لكنه غير قادر على ذلك. اندهش لأنه نسي مرمر وما فعله بها وصراخ أمها وبكاء إخوته وسباب أخيه بمجرد وصوله إلى القهوة وطلبه كوب شاي سكر زيادة. نسي فعلًا، أو ربما رأى الأمر تافهًا للغاية. «ماذا سيحدث يعني للعالم؟ عيِّلة بنت وسخة صحيح.. ثم ربما انبسطت هي بما حدث، نعم أكيد انبسطت..» شعر بالزهو بنفسه وهو يرشف الشاي ويرفع عينيه إلى الشاشة المعلقة أمامه بينما ينمحي من ذاكرته كل شيء.

الكاتبة

لم تتفوق رضوى في الدراسة، ولم تصبح أستاذة جامعية مثل أبيها، حصلت على بكالوريوس الإعلام بتقدير مقبول، ولم تضطر يومًا للعمل الحقيقي، هل الكتابة ليست عملًا حقيقيًّا؟ حزنت لأنها هي نفسها تحتقر مهنتها، تحتقر كلمة روائية المكتوبة في بطاقتها الشخصية بعد انضمامها لاتحاد الكتاب واعتراف الدولة بها. هي لا تعترف بنفسها. ما الكتابة؟ كل التعريفات التي تقرأها على الصفحات الثقافية، ومقولات الكتاب الكبار من أمريكا اللاتينية وشرق أوروبا والدول الاسكندنافية وآسيا، تلك التعريفات الفلسفية، المؤثرة جدًّا، الكبيرة جدًّا، التي تشاركها على صفحتها فتنتزع بها آلاف الإعجابات وكأنها هي من قالها، لا تقتنع بها، لا تجيد صياغة مقولة واحدة مثلها. ما الكتابة؟ الكتابة هي الجلوس أمام اللاب توب لتكتب كلمات على ملف وورد. هذا هو التعريف الوحيد الذي تصدقه.

الكاتبة الشهيرة، شهيرة على الفيسبوك فقط، أمام متابعيها الذين لن يعرفها معظمهم إذا رأوها تسير في الشارع. في الحياة

الحقيقية. هي لا شيء، مجرد امرأة تسير في شوارع مدينة صغيرة لا يهتم أحد فيها بما تفعله. تتسوق، تتمشى، تذهب إلى المقاهي وتفتح اللاب توب وتدخن سجائرها الإليكترونية، تشرب القهوة، وتكتب وهي تسمع موسيقى عمر خيرت أو أغاني فيروز. أو تقرأ رواية جديدة كُتب عنها أنها أعظم روايات الموسم، رُشحت لجائزة كبرى وظهرت على أغلفة الجرائد الثقافية، لا تعترف حتى لنفسها بأنها لم تحبها، ولم تفهمها، ولم تمنحها إجابات لأسئلتها عن الأدب العظيم. تقنع نفسها بما يرددون جميعًا، وتصوِّر الغلاف وتنشره على الفيسبوك، وتكتب أنها بالفعل أعظم رواية. لكي لا تهتز صورتها كمثقفة حقيقية وكاتبة كبيرة.

كل هذه الروايات ـ التي تكتبها والتي تقرأها ـ لم تمنحها ما تود فهمه عن حقيقة كونها شبحًا، لا يملك ما يعرِّفه كإنسان حقيقي. ليست كرواية أخرى قرأتها حول رجل يبحث عن أبيه، فيفقد نفسه. خافت من هذه الرواية، خافت وهي تتابع تحول البطل إلى قاتل، إلى شخص مشوه يسير في الطرقات رافضًا كل ما يُعرِّفه، وراغبًا فيما هو أبعد، في أب ثري يمنحه حياة لا يود بذل الجهد لربحها. وفي امرأتين واحدة تمثل جانبه الخيِّر، وأخرى هي كل شهواته الفجة، البطل لا يعرف ما يريد، هو رجلان معًا، حكايتان، وجهان مختلفان، يبدو في بعض المقاطع نقيًّا وصادقًا، يتحدث بمجاز مرهف، ويعبر عن أفكار عميقة، ومشاعر مرتبكة.

ثم يتحول السرد إلى جمل قصيرة، لاهثة، شريرة عندما يتحول في الظلام إلى رجل منهزم أمام جسد امرأة محرمة، حتى يمسك سكينًا ويقتل. يقتل فعلًا، يقتل دون تردد من جانبه الطيب، دون أن يتذكر نفسه الأخرى، ثم يسقط.

تساءلت، لو بحثت هي الأخرى عن أصل الحكاية التي تشغلها كل تلك السنوات، هل يمكن بشكل ما أن تتحول إلى قاتلة؟

حلمت أنها قتلت شخصًا. في الحلم لم ترَ الشخص الذي قتلته ولا لحظة القتل، رأت نفسها فقط ترتعش وتخبر أباها بما فعلته، طلب منها أن تسلم نفسها، أما أمها فأمرتها ألا تفعل وإلا ستُعدم، قالت إن خالها دفن الرجل وانتهى الأمر، لكنها أدركت أنهم حتمًا سيعلمون بأنها قتلت شخصًا، ستذهب إلى غرفة الإعدام، وسيلفون حبل المشنقة حول رقبتها. ما أرعبها فعلًا، طريقة أمها وأبيها العادية في الحديث، وكأنهما يتحدثان عن آخر مسلسل شاهداه. هذا ما جعلها تستيقظ من النوم ترتعش، ترتعش إلى درجة أنها ظلت للحظات تعتقد أنها بالفعل قتلت شخصًا وأن هذا لم يكن مجرد حلم.

هذا الشعور هو ما يجعلها ترغب في كتابة هذه الرواية الأخيرة، لن تكتب عن بنوتها الزائفة، ستكتب عن حكاية الطفل المُلقى من شباك حمَّام المستشفى الجامعي. لا تعرف لماذا تستنفر تلك

الحكاية مشاعرها بهذا الشكل. تتساءل دائمًا لا عن الطفل بل عن أمه. تشعر دائمًا أنها هي الطفل والأم معًا. سقطت من حالق ذات يوم وبدأت حياة جديدة بعيدة عن حياتها. وانتُزِع منها طفلها أيضًا لتعيش بعد ذلك فاقدة لكل ما يشدها إلى الأرض، بشعور دائم أنها محض قاتلة.

الرواية

تفكر يُمنى دائمًا في لقطة من فيلم تحبه، تجلس فيه البطلة بوجه شاحب وعينين ذابلتين على مائدة مطعم، شعرها متناثر على كتفيها، لم تهتم حتى بتسريحه، مضطرة للمسايرة، لأنها لم تتخلص بعد من سيطرة العلاقة المؤذية التي تورطت فيها، تفاصيل بداية قصة حبها على الضابط الوسيم، وأغاني عبد الحليم حافظ في الخلفية لا تزال تقيدها، رغم الضرب والإهانة والقسوة وإحكام السيطرة، هي لا تزال قادرة على الجلوس معه على نفس المائدة، الإمساك بالشوكة والسكينة وقطع الستيك وتناوله، الستيك غير ناضج، الدماء تملأ جوفه، مثل حياتهما الفارغة، القبيحة جدًّا من الداخل.

يذهبان إلى محل الأحذية، يشتري لها حذاء جديدًا، استسلام البطلة أمام زوجها حتى في شراء ما يخصها يشبه استسلام يُمنى الدائم، انصياعها لكل شيء لا يشبهها، لا يناسبها، لا ملابسها ولا البيت الذي تعيش فيه، ولا الرجل الذي ترتدي دبلته في يدها

اليسرى. لكن في الفيلم الاستسلام لا يعني الضعف، قدر ما يعني التمسك بفكرة ما، بشعور ما مر على القلب وعبد الحليم يغني في الشرفة، ربما الإحساس بهبة هواء لمست وجنة البطلة، والبطل الوسيم ينظر إليها، يمسك بيدها، يبتسم.

حتى استسلام يُمنى بلا طعم ولا ذاكرة. استسلامها لزوجها، واستسلامها للطبيب على شيزلونج ينزع عليه المرضى أسنانهم وضروسهم، سرير يلوث أحيانًا بالدماء واللعاب والبنج والخوف. في تلك الليلة تلوث بشيء آخر، بالخيانة، والمهانة، والقسوة.

في تلك الليلة، بينما يستعدان للرحيل، تعمد الطبيب اعتراض طريقها للباب، وقف أمامها بينما تمد يدها لمقبض الباب وابتسم. اقترب منها، وجهه على وشك لمس وجهها، شعرت بهبات ساخنة تنبعث من جسدها كله. تنفست بسرعة وزادت دقات قلبها، أوشكت على الإغماء عندما اقترب بشفتيه من شفتيها وقبلها.

لم يقترب منها أحد إلى هذه الدرجة من قبل، كل ما سبقه مجرد عبث أطفال، لذلك تجمدت للحظة، لن تنكر أنها خافت، فكرت أن هذه بالطبع هلوسة أخرى، هلوسة من خيالها النشط دومًا، لكنها لم تقاوم. تركت نفسها ليد الطبيب وهي تجذبها إلى حضنه، وهو يغرقها بقبلاته، ثم يفك ببطء طرحتها، ويخلل أصابعه في شعرها.

لم تعترض عندما خلع معطفها وفك أزرار قميصها، أو عندما دفعها إلى الشيزلونج وأماله إلى أن انفرد كسرير. ثقل جسده فوق جسمها، وشفتاه اللتان تمسان رقبتها وصدرها وكتفيها. كيف سمحت له بكل ذلك؟ ولماذا تنقبض بطنها الآن وهي تتذكر، دون حتى أن تشعر بالندم؟

طوال عمرها، تتساءل عن كنه النساء الخائنات، كيف يستطعن منح أجسادهن لرجال غرباء؟ حتى لو وقعن في حبهم، كيف تقبل امرأة أن يصبح جسدها ملكًا لرجلين؟ كيف ستحترم نفسها وهي تنهض من حضن رجل لآخر؟ لكنها وبعد أن ارتعشت أسفل ذلك الرجل الغريب الذي لا تعرفه جيدًا، والذي لا تحبه حتى، أدركت أن الأمر ليس مفجعًا إلى هذا الحد. الجسد مجرد جسد، واللمسات مجرد لمسات، والجنس مجرد جنس، يمكن إزالة آثاره، والتظاهر أنه لم يحدث، يمكن فعلًا نسيانه، وتجاوز أمر جلل مثل ذلك لأنه وبعد حدوثه بدا تافهًا فعلًا. لا يستوجب حتى الاعتذار.

عندما انتهيا، نهضت بهدوء، وارتدت ملابسها أمامه، هي التي تخجل حتى من تبديل الملابس أمام زوجها، نهضت هكذا عارية، أمام ذلك الرجل الذي لا تعرفه، وارتدت ملابسها وحجاب شعرها، وعدلت هيئتها، وانتعلت حذاءها، ونظرت إليه بعد أن فرغ هو الآخر من ارتداء ملابسه، كما تنظر إليه كل ليلة، طالبة منه إغلاق الأنوار والاستعداد للمغادرة.

خرجا من مكتبه، وسارا نحو باب العيادة الخارجي، أغلقاه جيدًا، وخرجا إلى الشارع، انتظرها حتى أوقفت سيارة أجرة وصافحها كما يصافحها كل يوم، كما يصافح زميلان بعضهما كل يوم. ثم ذهبت إلى بيت والديها لاصطحاب الطفلة قبل الذهاب أخيرًا إلى منزلها.

كل شيء كما هو، كل تصرفاتها، طريقة كلامها، ردها على زوجها في الهاتف عندما يتصل كل ليلة للاطمئنان على الطفلة، كشفها على المرضى، استماعها لشكوى النساء المجذومات من سخرية الآخرين، ورغبتهن المستمرة في إنهاء حياتهن، حسابها لتكلفة الإفطار اليومي مع الممرضات والأطباء في المستشفى وجمعها المال منهم لطلب الساندوتشات من مطعم الفول والطعمية الأقرب. مراجعة الدروس مع الابنة كل ليلة، تناول الغداء أحيانًا مع أمها وأبيها. كل شيء كما هو، كل حياتها كما هي، حتى تعاملها مع الطبيب نفسه لم يتغير، حتى إنها رأت في عينيه نظرة اندهاش، وكأنه توقع العكس، أن يعمد هو إلى تجاهلها، وأن تستجديه هي. لكنها لم تفعل ذلك، بدت كما هي دومًا، هادئة، عملية، سريعة، روتينية، ميتة.

نعم، لا شيء يمكن أن يبث روحًا أو بعض روح في حياتها الميتة. لماذا قبلت؟ لماذا تجمدت حياتها بهذا الشكل عند نقطة ما؟ ولماذا تشعر أن لا شيء مهم طالما سينتهي بسقوط مفاجئ؟

حتى السقوط لا بد أن يحمل معنى. ألا يكون مجرد شعور ينتابها وهي تسير في الشارع وتتمناه. أن تسقط الآن على الأرض فارغة من كل شيء. أن تترك نفسها للجاذبية دون خوف. لا بد أن تخاف أحيانًا، ولا بأس لو ارتعشت يداها وهي تتناول حقيبة العينات التي طلبتها بشكل خاص من مندوبة الأدوية مقابل أن تصف منتجاتها لمرضاها، ولا بأس في تحمل نظرات المندوبة المشفقة أو المنذرة، ولا مشكلة لو ترددت وهي تدس الحبات في مهبلها، وتبتلع أربع حبات إضافية ثم تشرب كوب المياه كاملًا. ربما يجب عليها أن تبكي أيضًا. وهي تشعر بعد ساعات بالمغص يشرخ بطنها. عليها أن تستغل تلك الساعات من الألم في تذكر كل شيء، من استعادة كل اللحظات الأخرى القاسية في حياتها. أو ربما هي لحظات غير قاسية، هي لحظات عادية. مثل وجوه مرضاها المغضنة، ومثل المسامات الدقيقة على جلود النساء الراقدات أمامها في العيادة. ربما هي القاسية، أو هي التي لا تشعر بشيء حقيقي، ربما هي التي تحمل بكتيريا الجذام داخلها وليس مرضاها، ربما أكلت البكتيريا مراكز الحس في أعصابها. تخيلت البكتيريا تتجول داخل جسمها لتنهش أعصابها ببطء وشراهة، بينما على السطح لا شيء يتغير، سوى نظرات عينيها التي تفقد كل يوم بعضًا من لمعانها، وسوى تلك الغصة الدائمة التي تتكون في حلقها وتجعلها غير قادرة على البلع أحيانًا. كل الأطباء

الذين يتعاملون مع مرضى الجذام يتوقعون تلك اللحظة، أن تظهر علامات المرض عليهم فجأة، أن يحملوا البكتيريا داخلهم دون أن يعرفوا، رغم كل الاحتياطات، وتراجع المرض وتوقف العدوى من المرضى القدامى، يظل الاحتمال دائمًا قائمًا، أن يفقدوا فجأة الإحساس بكل شيء، وهي بالفعل لا تشعر بشيء.

زوجها كان على حق عندما عبر عشرات المرات عن استيائه من عملها، قال إنها ستجلب لهم المرض، كانت تشرح له بصبر أن نسبة التقاطها للعدوى لا تختلف كثيرًا عن الإصابة بالعدوى في أي تخصص طبي آخر، فيقلب وجهه ويتركها، ربما يشمئز منها، ربما يراها بوجه متغضن وأطراف متساقطة، أحيانًا ما ترى نفسها كذلك في مرآتها، وانعكاسها على الفترين وزجاج السيارات. لا تختلف عن مرضاها المساكين، الملعونين بلعنة هي الأسوأ، لأن الناس لا يحترمون سوى الجمال ولو كان غلافًا لروح مشوهة، يحتقرون القبح ولو كان غطاء لأجمل روح في العالم.

تأملت كوب الماء الفارغ أمامها وحاولت أن تبكي، عليها أن تخرج تلك المياه التي ابتلعتها على هيئة دموع، لكنها عجزت حتى عن ذلك.

الحقيقة

يتذكر عوض عبد الدايم طفولته جيدًا..

ويتذكر أباه، المعلم سيد عبد الدايم، الذي كان يسير في الحارة فلا ترى سوى عباءته الطويلة وعمامته، لأن لا أحد يقدر على النظر في وجهه. «أيام العز يا عوض..».

يصيح في الحصان ليسرع دون أن يلسعه بالسوط كما يفعل أخوه الأوسط حامد، وكما يحاول سخام البرك زيزو أن يفعل، الحصان يفهمه هو كما فعلت كل الأحصنة التي قادت هذه القاطرة معه ومع أبيه من قبله. لم تعد تجارة الجاز رائجة، لم يعد الناس ينتظرون مروره في الحواري والشوارع كما انتظروا أباه زمان، تذكر نفسه وهو يجلس بجواره على العربة مستمتعًا بالفرجة على الشوارع، شوارع مظللة بالشجر، بيوتها مثل بيوت الأفلام الأبيض والأسود، يخرجان من الكفور القبلية إلى شارع المديرية والبورصة والصاغة والقنطرة وربما يصلان إلى شارع البحر. كل البيوت تنتظر الجاز، أما اليوم من ينتظره؟ بعض المحلات والورش وبعض النساء اللاتي

يستخدمنه في إشعال الوابور لقلي الطعمية والبطاطس للطلبة والموظفين. حتى هؤلاء اقتربن من التلاشي من الشوارع. كل شيء تطاير مثل الجاز، مثل حياته نفسها التي تتطاير كل يوم. ربما لن يتبقى منه سوى هيكل فارغ، هو وعائلته وبيته والكوبانية والمقابر. ثمَّة شيء يكتم على نفسه مثل مزيج من التراب والماء والدخان، يتسلل داخله ليسكن فراغات جسمه ويمنعه من أخذ نفسه.

الشوارع مزدحمة جدًّا، حتى حصانه يحرن من السير فيها، يصيح فيه عشرات المرات ليجري وسط السيارات المسرعة، ويشده بعنف ليقف بينما يعبئ الجاز بالقمع لمحل أو مخبز في جركن متسخ أو زجاجة مياه معدنية فارغة. يحب رائحة الجاز، تذكره بأيام قديمة، أيام سعيدة قبل موت أبيه وتبلد إخوته وبلطجة أزواج شقيقاته. كل واحد منهم يفعل مصيبة ويشيل هو الخراء على رأسه.

عليه أن يصرف على نجاة وأولادها لأن زوجها «بطح» عيل في خناقة ودخل السجن، وعليه أن يدفع حامد دفعًا ليساعده في ملء القاطرة بالجاز من الكوبانية واللف أحيانًا بالعربة، ثم عليه أن يحمل هم زيزو، هذه مصيبة وحدها، عيل طري لا يجيد شيئًا ولا يفعل شيئًا سوى تدخين الخوابير في صالة بيته، ثم تخبره زوجته أنه هو من فعل بالبنت فعلته؟ لا يصدق، زيزو الخول يغتصب ابنته؟ لا يمكن، «المرة تخطرف»، قال لنفسه،

لا بد أنها تخطرف، أو أن البنت بنت الأستاذة التي تدعي بأنها رأته من شيش الشرفة المفتوح تخطرف، البنت تبدو «خفيفة» قليلًا، جامدة تسير في الحارة مثل العسكري ولا تحدث أحدًا، كما أنها ترتدي نظارة، بالتأكيد لا ترى أصلًا.

بالتأكيد زنقها أحدهم في الترب التي تصر على اللعب فيها، أو ربما عيل صايع تسلل إلى البيت وعمل عملته السوداء في البنت، لم يرَ زيزو شيئًا لأن دماغه غائبة دائمًا، ربما كان نائمًا. لا يمكن أن يصدق.

الكارثة أن يكون أحد العيانين في مستشفى الجذام هو من فعل ذلك، يسمع كثيرًا قصصًا مرعبة عنهم وعما يفعلونه في المستشفى، سمع شائعات عن تحرشهم بالممرضات والأطباء. ثم إن حكاية العيانين المدفونين تحت المبنى القديم ليست فقط مجرد حكاية عن مرضى ماتوا ودُفنوا بعد أن رفض أهلهم استلامهم. أمه تقول بأن الأمر أكبر، وإنها كانت هوجة كبيرة للعيانين المحجوزين في المستشفى القديم زمان، بدأت من عيان واحد زنق ممرضة فصرخت صراخًا أيقظ الموتى من قبورهم المجاورة، لكن الرجل الذي فقد كل أطرافه عدا عضوه المنتصب دومًا زنقها زنقة لم تستطع معها فرارًا، ثم تكالب عليها العيانين الذين هاجوا من المنظر، وعندما تدخل التمرجية لنجدتها لقوا مصيرها. العيانين لم يفرقوا ليلتها بين رجل وامرأة من الأصحاء،

ويبدو أن أحدهم نشر شائعة بأن المرض يختفي لو نكح عيان سليمًا، ولم يفلح شيء في إيقاف الهوجة سوى تدخل الهجانة على أحصنتهم برئاسة مأمور قسم أول. تقول أمه إن المأمور أوقف العيانين كلهم صفًّا واحدًا وأطلق عليهم النار ثم دفنهم أسفل المبنى، أُغلق المستشفى دهرًا حتى أعاد عبد الناصر فتحه، ليعالج المجذومين لكن دون إقامة، يأتون لأخذ العلاج ويذهبون، بينما بقيت أشباح الميتين تحوم في المبنى القديم المهجور.

لماذا يفكر في مستشفى الجذام والمجذومين والبظرميط؟ يبدو أن عقله هو أيضًا خف. عليه التعامل مع الكارثة على كل حال، لا يعتبرها فضيحة لأن الحارة كلها بالفعل عرفت بما حدث، لكنه لن يترك البنت تنجب عيلًا لا يعرف أباه.. والكارثة لو أنه عمها فعلًا، الكارثة الأكبر لو أن أباه مجذوم وأتى عيل يحمل المرض ويجرسهم جميعًا، عليه أن يضع كل الاحتمالات.

أخرج سيجارة مثنية من جيب القميص وأشعلها، غير عابئ بالجاز في القاطرة خلفه، لم يدخن وهو يقود العربة قط، تعلم ذلك من أبيه لكن الوضع اليوم مختلف، يسمح له ببعض التحرر من المسؤوليات. يا ليت أباه حي ليرى الكارثة التي حلت على أولاده. ليرى ما حدث لهم في نهاية الزمان، عليه أن يحل الموضوع بسرعة.

تقول ثريا إن نجاة ستتصرف، ثريا زوجته هي الوحيدة التي تفهم في هذا البيت، نجاة قادرة على التصرف لأنها تساعد النسوة

اللاتي يأتيهن المخاض فجأة على الولادة في البيوت. ستتعامل مع الأمر وسينتهي كل شيء. كل شيء ينتهي ويمر، كما يمر الزمن وتتحول كل الأوضاع.

هذا البيت، الذي بناه أبوه بيديه، وبناه هو معه، لا بد أن يعاد تشكيله. ربما عليه الجلوس مع إخوته ومفاتحتهم في الأمر، يبيعون البيت ويأخذ كل واحد نصيبه ويذهب في حال سبيله. لم يعد قادرًا على تحمل كل العبء وحده، والصرف على كومة العيال والنسوان وأنصاف الرجال. ثم إن الحارة كلها ضاقت، وأشكال العيانين في مستشفى الجذام تنغص عليه قعداته المسائية على ناصية الحارة، والكوبانية باتت فارغة، حتى الحصان اقترب من الموت.

الحياة كلها تتغير، عليه أن يفهم ذلك بينما لا يزال يحتفظ ببعض صحته، ربما عليه أن يحمل زوجته وأولاده ويذهب بعيدًا، يمكن أن يعمل بوابًا في إحدى العمارات الفخمة التي تُبنى في شارع الحلو، وستساعده زوجته وابنته بالعمل في البيوت. كلما مر من تلك المنطقة الجديدة وجد عمارة تُبنى، يعرف بعد كل ما رأى وخبر في الشوارع، كيف تتحول منطقة متطرفة مظلمة إلى شارع مضيء ممتلئ بالمحلات والمقاهي والبشر في غضون عام أو عامين، عليه أن يستغل الفرصة هذه المرة، سيذهب من الآن لعقد صداقات مع الخفراء والمقاولين ليعرفوه إلى أصحاب الأبراج الجديدة ويرشحوه للعمل بوابًا، سيحظى على الأقل

بغرفة «برحة» في مكان نظيف. مع ناس جديدة لا يعرفون ما حل بابنته، ربما أيضًا يستطيع تزويجها بعد أن تتخلص من المصيبة في بطنها وإبعاد همها عنه للأبد.

«معلش بقى يابا..».

على أبيه أن يعذره في تربته، البيت الذي بناه للمِّ عائلته بات مصدعًا، لأنه في قرارة نفسه، ورغم إنكاره لكل شيء، يعرف أن ما رأته البنت أم نظارة حقيقيًّا، وأن زيزو من فعلها بمرمر، «عيل وسخ طول عمره.. بيهيج على أمه مش هيهيج على بنت أخيه؟»

سيشد عوض عبد الدايم لجام الحصان ليقف بجوار عمارة تحت الإنشاء في شارع الحلو، وسيجلس مع الخفير في عشته المبنية بجوار أساسات الحديد والأسمنت ليدخن الجوزة. في تلك اللحظات سينسى أيضًا كل شيء، هذه القصة هامشية في عقله، لأنه يملك أفكارًا أهم عليه التفكير فيها، مثل توفير المال للغذاء والشراب وتعبئة قاطرة الجاز وأكل الحصان وخزين المعسل والتبغ، ثم العيال الكثيرين في البيت، وطلبات أمه، جلابية جديدة وخف جديد، وربما فاتورة الكهرباء والماء أيضًا، ثم أفكاره نحو حياة أخرى يهرب فيها من هذا المكان الضيق، ومن ذكرى أيام لن تعود مجددًا. هذه الحياة بنت الوسخة لم تعد حياته، منذ رأى بطن البنت تتحرك أمامه، وعليه الآن أن يبعد هذا المنظر عن مخه ليتمكن من العيش.

الكاتبة

تفضل رضوى السير حول البيت في الساعات المبكرة من الصباح..

تمر أمام المقابر حيث دُفن والداها، لترى النساء جالسات أمام قبور أحبائهن، يوزعن حبات الفاكهة وأقراص «الرحمة». لم تفعل مثلهن عندما ماتت أمها، لم تزر قبرها، اعتادت الأم زيارة قبور أقاربها إلى أن غلبها الزمن ولم تعد تقوى على الحركة، وعندما ماتت لم يزرها أحد. يزورها؟ أين؟ لا تؤمن رضوى بأن الميت يشعر بزائريه، لا شيء في كل هذه القبور.. هذه أماكن شاسعة الفراغ، تراها من شرفتها في المساء ساكنة هامدة، لا حياة سوى تلك التي بداخل القطط الضالة والسحالي وربما بعض الهوام. ربما بعض الرجال الملتفين حول نار أوقدوها لشرب الشاي والتدخين. لا تعترض أبدًا عندما يهاتفها حارس المقبرة ليستأذنها في دفن ميت غريب إلى جوار والديها. توافق دائمًا، منذ أول مرة في فبراير ٢٠١١، ليلة تنحي الرئيس الأسبق، عندما استأذنها الحارس في دفن طفلة إلى جوار والديها

ووافقت. بعدها تركت معه مفتاح البوابة. لا شيء فارق، لا مانع من دفن غرباء إلى جوار أهلها وإلى جوارها بعد ذلك، ليس ثمَّة غربة في الموت. كل البشر يتحولون إلى محض تراب، ربما لذلك لم تشعر بشيء عندما أخبرتها بائعة الورد أمام مسجد عوارة أنهم يعتزمون هدم المقابر، ونقلها إلى خارج المدينة.

سألتها فقط عن السبب فقالت: إعادة تخطيط، وقرارات بنقل كل المقابر التي تقع بين البنايات السكنية. المحافظة تعتزم تطوير المنطقة وتوسيع مستشفى الجذام، سيتحول المستشفى ليصبح جزءًا من مجمع طبي كبير، كل شيء سيتغير، وسيهدمون الأكشاك التي بناها الشباب من الصاج والخشب بعد ٢٠١١، كل الأكشاك التي حملت يافطات مكتوبًا عليها بخط يدوي رديء «٢٥ يناير» لمدة عامين، ثم غيروها لتحمل أسماءهم أو أسماء أولادهم أو أسماء الأغاني التي يحبونها. ستهدم أيضًا، وسيتشرد المساكين في البيوت العشوائية داخل الأزقة المجاورة لكوبانية الجاز. سيهدمون كوبانية الجاز نفسها، لكن العمارات المرخصة خلف المقابر حيث يقع بيتها لن يمسها أحد. هذا كل ما اهتمت بسماعه، أما المقابر والمستشفى وكوبانية الجاز والأكشاك، فلتهدم كما يريدون.

أومأت برأسها للمرأة دون أن تسمع سوى ما تريد سماعه، لم تسمع دعواتها أن ينزل الله عليهم العقاب بسبب إقلاق راحة

الموتى وإهانة رفاتهم، وأن أكل عيشها سينقطع هي والعشرات ممن هم مثلها، أكملت سيرها وهي تفكر، سارت في الشوارع المجاورة للمقابر، ومرت أمام مستشفى الجذام وكوبانية الجاز، بدا المكان على عكس المعتاد ساكنًا. لا زحام لزوار ولا مرضى ولا لعربات جاز تنتظر حصتها. في هذه المنطقة، لا تزال المباني قصيرة وملونة، والأرض غير مرصوفة. الشوارع تصل إلى حارات وأزقة، والحارات تصل إلى مطالع ومنازل، بدرجات سلم منحوتة. فكرت وهي تصعد وتهبط محاولة التقاط أنفاسها، أن أسفل هذه الأرض يقبع الكثير من الحكايات، إنها أرض قديمة فعلًا. مشى فوقها أشخاص قدامى. حياة خرافية لكنها حدثت فعلًا. هذه الأرض مثلها تخفي الكثير، إلى درجة أنها تشعر أحيانًا بعبء السر على كاهل الأرض. وكأنها تجعل من يسير عليها منجذبًا إلى باطنها، تشعر بأنها ستوشك على الوقوع، المشي متعب جدًا على الأرض العجوز. تمامًا مثل محاولتها للمشي على سطح ذكرياتها، لالتقاط ما سقط منها، أو أسقطته.

هل سيهدم قبر والديها فعلًا؟ وهل فعلًا لا تهتم؟ لو أنها تنهي روايتها الأخيرة، لو تكتشف السر الذي يدفع أمًّا لرمي طفلها من الشباك، لاكتشفت أيضًا سر حياتها الباهتة. ثمَّة شيء داخل نفسها سيعرف، إن كانت تلك اللحظة البعيدة التي غيَّرت حياتها حقيقية أم كاذبة، لأنها لا تملك أي دليل آخر، لا تملك سوى نظرات

أمها العادية وهي تخبرها بأنها ليست ابنتها، وكأن جميع الأطفال لا يخرجون من بطون أمهاتهم. حتى اللحظة المتفجرة في حياتها، منحتها لها أمها بطبيعية مستفزة لا تكفي لخلق دراما كافية لكتابة رواية أو معرفة الحقيقة. لكنها، كلما أغمضت عينيها، ترى العالم يهوي. عالمها الهادئ الجميل، بيتها المريح ومكتبها الكبير، وأريكتها البرتقالية ونباتات الظل، واللوحات المعلقة على الحيطان، والدولاب الذي يضم التذكارات التي جمعتها على مدار حياتها من البلاد التي زارتها، والهدايا التي يغمرها بها قراؤها كل ندوة، الأكواب المطبوعة بأغلفة رواياتها وصورها، والأقلام والمفكرات وبراويز الصور. كل شيء يهوي، أو ربما هي من يهوي، لكنها لم تعرف ذلك بعد، ثمَّة شيء ناقص في قصتها، لن تكمله سوى بمعرفة الحقيقة من الزيف، لذا، عليها أن تكسو شبحها الهائم بطبقات الحقيقة، رغم أنها لا تملك سوى المدينة التي أنجبتها، وقبر يضم الشخصين اللذين لم تعرف سواهما، وصورة لطفلة لم تعد تشبهها.

أخرجت هاتفها وفتحت الكاميرا الأمامية ونظرت إلى نفسها، أدهشها أن ملامحها تبدلت، بدت في تلك اللحظة، بعد أن علمت بأن قبر والديها سينهدم، وأنهما في سبيلهما للتلاشي بعد التلاشي، باتت أقرب شبهًا إليهما، حتى عيناها تبدوان أوسع اليوم. وكأنها تتلبس جسم امرأة لم تمسه من الداخل، وجسم

رجل لم تعرفه سوى سنين قليلة منحها فيها الكثير من الحلوى والقليل من الكلمات. تعرف أنها لن تتخلص من تلك الرؤى إلا إن تمكنت من كتابة تلك الرواية عن طفل المستشفى الجامعي وأمه، من منح نفسها تاريخًا جديدًا، حقيقيًّا أو مزيفًا، لكنه أكثر إقناعًا من عالم يهوي إلى أسفل كلما أغلقت عينيها.

الرواية

في تلك الليلة، ليلة سقوط مرمر، لم تتمكن يُمنى من النوم، ليس من فكرة أن ثمَّة جثة محترقة في البيت المقابل، لا يفصلها عنها سوى أمتار قليلة، ولا حتى من الأصوات المنبعثة من غرفة نوم أبويها. الأصوات التي اعتادت سماعها بعد كل مشاجرة بينهما، والتي لم تتوقف رغم كل ما حدث، ورغم بكاء أمها ولعنات أبيها على بيت الجاز وقاطنيه والحارة والمنطقة «الوسخة» التي يعيشون فيها. لكن من شيء آخر لم تتمكن من مقاومته، شعورها بجسد زيزو جاثمًا على جسدها.

منذ أن رأته يتحرك بجسده فوق جسد البنت وهي مهتزة، تستعيد المشهد عشرات المرات، تتقمصه، وتتخيل نفسها محل مرمر، تكاد تشعر بثقل الجسد فوقها، وصوت اللهاث وحتى لعابه السائل على وجهها وشعرها. تتخيل كل تفصيل ويتحرك جسدها وكأن شيئًا يتحكم فيه حتى ترتعش، حتى تشعر بجسدها ينتفض، بأسفل بطنها ينبض. في المرة الأولى شعرت بالذعر، لم تفهم ما حدث، وظنت أنها ستصاب بأزمة قلبية كما تشاهد في المسلسلات

العربية. لكنها، بينما تسير في الطريق إلى مدرستها، شعرت باشتياق وحشي إلى تلك الارتعاشة، وتلك النبضات.

كلما تشاجر والداها، استعادت المشهد، وكلما رأت زيزو يسير في الحارة، أو التقته صدفة في مكان ما، ترتعش. تشعر بشعور مختلط من القرف والوحشة، تكرهه، لكنها لا تستطيع مقاومة تلك الانقباضة التي تصيبها كلما رأته.

جثة مرمر المحترقة قريبة جدًّا، لكنها غير قادرة على مقاومة هذا الشعور، ظمأ قاتل لا ترويه سوى تلك النبضات، في تلك الليلة تأوهت، وتعرقت ولهثت، ثم شعرت بذنب يحرقها مثل النار التي هبت عليها ومرمر تسقط من السطح.

كان يمكن أن تكون مكانها، كان يمكن أن تكون هي مرمر ومرمر هي. فرق أمتار فقط ما يفصل بين حياتيهما. لو وُلدت هي في بيت الجاز، ومرمر في بيتها، لكانت اليوم مجرد خرقة محترقة يحاولون مداراتها داخل الأرض، ولكانت مرمر هي من تنام على سريرها، وتمتلك كل الملابس في دولابها، كل الأحذية أسفل الدولاب. لو كانتا في فيلم من تلك الأفلام التي تستبدل امرأتان فيها حياتيهما، أو تتبادل أم وابنة الأدوار، لكانت اليوم في مأزق كبير. حتى الأفلام الكوميدية المضحكة يمكن أن تتحول إلى رعب لو انتقلت إلى الواقع. شعرت أكثر بالذنب لأن مرمر لم تختر حياتها، ولا هي كذلك.

لم تتخلص يُمنى من ذلك الشعور بالذنب، صاحبها في كل مرة تخيلت نفسها أسفل رجل، وحتى في كل مرة نامت فيها مع زوجها. لكنه تلاشى عندما قابلت الطبيب الجديد، واستسلمت لثقل جسده على جسدها. لم تتمكن من منع نفسها عن الابتسام، لأنها أدركت أن ارتكابها لذنب حقيقي هو الشيء الوحيد الذي ألغى شعورها الدائم به.

الحقيقة

البلاط أسفل ظهر مرمر بارد ومبتل، والإضاءة الصفراء تحرق عينيها. تتأوه، صوتها صوت طفل وكأنها هي من تولد من داخل نفسها، بكاؤها بكاء طفل يولد، وتقلبها بين البارد والحار يحولها إلى خرقة بالية، خرقة تعتصرها عمتها من تحت إبطيها، بينما تقف أمها مستندة بظهرها إلى باب الحمَّام. حمَّام المستشفى؟ ما الذي أتى بها إلى هنا؟ أدخلوها مبنى المستشفى ففكرت أنها بالتأكيد ستخف، سيعالجها طبيب مما تحويه بطنها، وستتمكن من العودة مرة أخرى إلى حياتها، سيخرج منها ما بداخلها، وستعود إلى الجري واللعب في الترب، أو لن تعود، ستجلس في البيت ولن تغادره أبدًا، لن تنظر في وجه أحد مرة أخرى، لا تريد أن ترى العالم، ولا المقابر ولا المجذومين ولا الأحصنة ولا البشر. تريد أن تجلس وحدها على سطح البيت، وسط صفائح الجاز، تشم رائحتها وتنظر إلى السماء. السماء برائحة الجاز؟ أو أن الأرض هي التي تفح تلك الرائحة؟ لا تعرف، المهم أنها رائحتها

المفضلة، لا تشمها الآن، تشم رائحة عرق وعفن وصنان، رائحة رعب. ما الذي أتى بها إلى هنا، وما الذي تفعله كريمة الممرضة التي تعيش في الحارة المجاورة عند ساقيها؟ تمد يدها ما بين ساقيها وتضغط على بطنها، والجميع يطالبها بأن تدفع. تدفع ماذا؟ تهمس عمتها، احزقي يا مرمر، ادفعي.. لا تفهم، ثمَّة شيء محشور في صدرها، أو حلقها أو بين ساقيها، بكت وحاولت أن تصرخ لكن عمتها كتمت صراخها. ستموت بالتأكيد، أو ربما هي ماتت فعلًا، ربما دخلت النار كما تهددها جدتها دومًا عندما تضرب أولاد عمومتها الصغار، أو تسرق ملعقة سكر من البرطمان بجوار السبرتاية. الإضاءة صفراء جدًّا.. ماذا عليها أن تفعل لتعود من جديد إلى ظلمة الشارع؟ عليها أن تدفع الشيء المحشور داخلها. لأن الألم يشتعل كل دقيقة، ولأن ما بين ساقيها ينفرج وكأنها ستنشق نصفين، شباك الحمَّام أمامها لا يطل على شيء، لا سماء ولا أرض. مبنى أصفر بشبابيك مغلقة متجاورة، وأصوات الناس تأتي من بعيد جدًّا، صياح وحفيف خطوات وسباب وأبواق سيارات. وهي في فجوة منعزلة. النسوة الثلاث من حولها مثل ملائكة موت، مدثرات بالسواد ووجوههن مبتلة بالعرق. ظهرها بارد وبطنها تشتعل. صرخت..

كيف هو الموت؟ مثل النوم؟ دائمًا ما تصيح بأنها لا تريد النوم، ثم تضع رأسها على الوسادة وتغيب، ربما الموت كذلك،

غياب مفاجئ لأفكارها، توقف عن الحديث المستمر مع نفسها، واستعادة مشاهد ووجوه وشعور بالجوع أو العطش أو الرغبة في كيس شيبسي بالجبن وزجاجة كولا باردة.

نعم هذا هو الموت، ما تشعر به الآن ليس موتًا، بل هو الحياة، هذا الألم هو الحياة التي تود إنهاءها، حياتها القصيرة التي لا تتذكرها تمامًا. سنوات مثل سنوات شاهد قبرها المفضل، قليلة، مرت دون أن تفهم، مرت دون أن تعرف ما هي تلك الدنيا التي يسبها أبوها كل ليلة. لا تعرف شيئًا سوى تراب الشارع ورخام القبور وروث الأحصنة ورائحة الزبالة، ووجوه العيال المتسخة ولون جراكن الجاز الحمراء، وصفير صدر جدتها وصوت عمتها الخشن وهي تسب عيالها طوال اليوم. ما الذي يسعدها؟ ملمس سجادة بيت يُمنى وهي تخلع حذاءها على الباب وتغوص فيها؟ خطها وهي تكتب في الكراسة الحروف بالقلم الرصاص أمام أم يُمنى؟ بسكويت التمر؟ الصمت الذي يلفها ساعة المغربية عندما يرحل معظم زوار القبور وتظل هي جالسة في زقاق مخفي بين الحيطان الجيرية الملونة؟ صمت ثقيل لكنه ناعم، صمت مع نسمات هواء ورائحة ريحان. في تلك اللحظة تستطيع التنفس فعلًا، حتى إنها تشعر بالسعادة للحظة، وبأن الحياة ربما تكون جميلة.

ربما عندما تتخلص من ذلك الشيء، ذلك الشيء.. الشيء..

صرخت إلى أن بُح صوتها، ثم غابت.. وعندما فتحت عينيها، لم تر سوى الضوء الساطع مثل شمس، لكن الخيالات حولها تحركت فجأة، ثمَّة خيال أسود التقط شيئًا من بين يدي كريمة، شيئًا صغيرًا مثل رغيف خبز مكرمش، لم تتمكن من رؤيته، لا ترى شيئًا، العالم تحول إلى كتلة لزجة تهتز أمام عينيها، لكنها التقطت أنفاسها، جسمها كله يؤلمها، مكسَّر كما شعرت عند إصابتها بالحمى. في تلك الليلة أخذتها أمها إلى مستشفى الحميات، أعطوها حقنة أحرقت إليتها طويلًا لكنها استعادت قوتها بعدها، انخفضت حرارتها وسكنت آلامها، تريد تلك الحقنة الآن، تريد أن تستعيد الشعور باللا ألم. الألم يبدو مستمرًّا للأبد، لن يتلاشى أبدًا..

لن يتلاشى فعلًا.. لأن الشيء في يد عمتها صرخ صرخة خافتة، ثم طوحته العمة من الشباك..

الكاتبة

اعتادت رضوى السفر بالقطارات طوال دراستها الجامعية، كل يوم، تغادر بيتها القديم في الخامسة والنصف فجرًا، لتسير في الشارع الطويل المظلم وحدها، لا تذكر من تلك الأيام سوى شعورها الدائم بالتعب.

أحيانًا ما بكت متدثرة بالظلام والوحدة، تجف دموعها فور وصولها إلى الميدان الصغير الصاخب بصيحات بائعي الخضار والفاكهة، ارتبط السفر لديها بالدموع ورائحة الخضار الطازج، وبالنفق الصغير الرطب الذي يصرون على أنه «كوبري»، والذي يفصلها عن المحطة وقطار السادسة الذي ينتظرها.

النفق لم يكن كئيبًا جدًّا، كلما عبرته تذكرت أباها وهو يحملها لتسير فوق سور ممر المشاة العريض، لم تخف من السقوط أمام السيارات المسرعة، لأنها تمسكت دائمًا بيده.

اليوم في طريقها للمحطة وحيدة تتذكر هذه اللحظات وتبتسم. تتغير مشاعرها في هذا المشوار اليومي القصير عدة مرات بشكل

ينهكها عاطفيًّا إلى درجة تجعلها تغرق في النوم فور جلوسها على مقعدها في القطار. تتمنى لو تطول المسافة لتحظى بنوم أطول، لكنها تشعر بتوقف القطار في القاهرة وكأنه اجتاز المسافة في دقائق، لم تلحظ أن محطة مصر ضخمة جدًّا إلا بعد سنوات، لأنها عبرتها كل يوم بعينين نصف مغمضتين وروح حبيسة.

السفر اليومي أنساها الإثارة التي شعرت بها في طفولتها خلال الاستعداد لسفر المصيف أو شم النسيم، أو السفر لزيارة طبيبها في المنصورة. بات فعلًا اعتياديًّا لا دهشة فيه. تحفظ مواعيد القطارات، وتعرف على أي رصيف يقف قطارها دون سؤال. بات القطار بيتها وطعام كافتيريا المحطة طعامها، وصالة الحجز استراحتها المفضلة.

بعد التخرج، لم تتمكن من استيعاب أنها ستتوقف عن السفر يوميًّا، شعرت بأنها غير قادرة على السير باتزان على الأرض الثابتة. مشيتها تثير ضحك أصدقائها، تترنح يمينًا ويسارًا وكأنها تسير داخل قطار متحرك، تحرك ذراعيها لتتشبث بمقاعده.

إلى اليوم تشعر بأنها في رحلة طويلة لا تعرف محطاتها، رحلة ثابتة مستمرة بشكل يثير مللها، اكتشفت أنها عرفت معنى نهاية الخط مبكرًا، الأمر الذي يجعل حياتها اليوم فارغة من أي رغبة في الوصول.

في طريق عودتها إلى طنطا من القاهرة، بعد ندوة مملة حضرتها مجاملة لكاتب لصديق، تأملت رضوى العالم من نافذة القطار وتساءلت لماذا تراوغها الكتابة؟

تعتقد أن كتابة أول ألفي كلمة هي الأصعب، لكنها اليوم تكتب آلاف الكلمات ثم تتوقف. كل رواية تختار مكانها. روايات كُتبت في البيت، وروايات أخرى لم تقبل بكتابتها إلا في مقهى مزدحم وسط صخب الناس وصوت التلفزيون والأغاني العاطفية أو صياح الجماهير في مباريات كرة القدم. بعض الروايات تطلبت صمتًا تامًّا مساءً بعد أن تختفي السيارات والطيور، ويتوقف صوت الأذان والصلوات وحفيف أقدام الناس والأغاني المتصاعدة من السيارات المارقة. تسمع اللحن مرتفعًا جدًّا ثم يخفت تدريجيًّا، تحب تلك الأغاني المتلاشية ربما أكثر من الأغاني الكاملة. وتحب الأصوات البعيدة أكثر من القريبة. لكن هذه الرواية لا تريد أن تُكتب في أي مكان.

عليها أن تكتب تلك القصة، عليها أن تعرف كل شيء عن الطفل الملقى من الشباك، وأيضًا عن أمه، جربت أن تبدأ الرواية كما الواقع، ابنة مزيفة تبحث عن أصلها، كليشيه جدًّا؟ لكنها السبيل الوحيد أمامها لتبحث عن الحكاية الحقيقية للأم التي فقدت طفلها عام ٢٠١١. ربما على البطلة أن تشبهها، كاتبة مثلها، وقد يعتقد القراء أنها هي. ربما تخوض البطلة قصة حب

سرية تخفيها عن الجميع، عن القراء وعنها نفسها حتى تنكشف شيئًا فشيئًا. غريب أن تخفي بطلة رواية تفاصيل حياتها عن كاتبتها؟ لكنها تتقبل ذلك. تتقبل أن تكشف لها البطلة شيئًا فشيئًا عن حياتها، هي نفسها حياتها تبدو مثل دمى الماتريوشكا، داخل كل دمية دمية أصغر فأصغر، لكن لا أحد قادر على الوصول إلى قلبها الحقيقي.

لماذا تريد الكتابة عن تلك الحادثة؟ لماذا لا تنسى أبدًا تفاصيل الحكاية، تخيلتها عشرات المرات إلى درجة أنها باتت تشعر وكأنها هناك. تقف أسفل المستشفى وترى الطفل يهوي من الشباك. أو أنها واحدة من النسوة اللاتي ألقينه من حالق. أو أنها الطفل نفسه. تشعر أحيانًا أنها ممسوسة. أحيانًا ما تتلبسها حكاية فتسير وتفكر وتتكلم وتحلم كشخص آخر. تتذكر أنها عاشت لعام كامل وهي عرجاء لأن بطلة روايتها كانت كذلك. أو تلك المرة عندما امتنعت عن الطعام وباتت أقرب إلى طيف، لأن بطلتها رفضت الطعام والحياة. ارتج القطار فابتسمت ساخرة من نفسها. «والله أنت تعطين الأمر أكثر مما يستحق». أنت تهلكين نفسك في الكتابة بينما يحصل الآخرون على كل شيء. تقرئين وتكتبين وتدرسين وتبدين وكأنك تستعدين لدخول حرب، ثم لا شيء، لا تحصلين على شيء، بل أنت يا حمقاء تخسرين فقط.

فكرت أن تخرج ورقة وقلمًا وتكتب كل ما خسرته..

١ ـ ساعات طويلة لم تقضها مع أمها وأبيها الراحلين لأنها اختارت حبس نفسها في غرفتها للقراءة في الطفولة ثم للكتابة. الشعور بأنها لا تنتمي إليهما أو لأي أحد، سارحة دائمًا في عالم آخر، ثمَّة مسافات بعيدة تقطعها بعقلها وحيدة، ثمَّة عازل حال بينها وبينهما دومًا. رحل أبوها مبكرًا دون أن تشعر بوجوده، ثم عاشت أمها لسنوات طويلة لم تحبها فيها حقًّا، مجرد امرأة عجينية تعيش معها، حتى إنها تنسى أحيانًا وجهها.

٢ ـ كل الأفلام التي لم تشاهدها لأنها اختارت القراءة بديلًا.

٣ ـ كل الأصدقاء الذين قاطعوها لأنها لم تعد تظهر في تجمعاتهم أو تحادثهم.

٤ ـ الزواج والأمومة.

٥ ـ الرجل الذي أحبته.

٦ ـ العلاقات المعتادة، بلا كراهية ولا تنافس ولا تجاهل.

٧ ـ راحة البال.. لم تعد قادرة على البقاء لدقيقتين هادئة بلا هدف، لأنها تفكر دومًا في مشروعها القادم وروايتها القادمة، أو تفكر في روايتها السابقة والظلم الذي لحق بها. أو تفكر في ميعاد التقدم لجائزة ربما تمنحها بعضًا مما تريده وتستحقه من تقدير. أو تفكر في كلمة سيئة أطلقها أحدهم عليها، أو مراجعة سيئة، أو النقاد الذين يتجاهلونها، أو شعورها بالنبذ من كتَّاب العاصمة.

٨ ـ النوم الجيد، لا تنام بعمق أبدًا، تشعر دومًا أنها في وضع منتبه، ترى كل شيء حتى في لحظات غياب الوعي. مؤلم جدًّا ألا يستطيع عقلك الراحة لثوانٍ.

ما الذي كسبته؟ هذا الشعور بالخفة بعد انتهائها من كتابة نص. من كتابة ولو ١٠٠ كلمة. هذا الشعور الإدماني بالخلق، بالقوة، وبالسيطرة على العالم. الكاتب مدمن وأناني. كل خسائره هي لا شيء أمام تلك اللحظة من الانتشاء. كل خسائر الحب والمال والوقت والراحة والسعادة وحتى الألم.

نافذة القطار مثل شاشة تلفزيون تعرض مشاهد خيالية لسماء قاربت على الاختفاء في السواد التام، وأشجار متتالية، وطيور غريبة تقف على البيوت الصغيرة المبنية من الحجارة والقش داخل الحقول. هي متيَّمة بتلك البيوت. تستهويها الفراغات الصغيرة.. الخزائن المغلقة والرقاد أسفل السرير. الخيمة التي صنعتها من الملاءات وإيشاربات أمها الملونة، تشد أطرافها وتعقدها في أي شيء ثابت ثم تسدل أطرافها حولها وتجلس داخلها، مثل شرنقة تحيطها وتعزلها عن أصوات العالم وضوء النجف الساطع. لا يتسلل من القماش الخفيف إلا بقايا ضوء تبدد الظلمة وتهدئ روحها. تظل مكانها ساكنة، وتشعر أنها ـ بشكل ما - تعيد تكوين نفسها من جديد.

تسحرها البيوت الصغيرة، والغرف الخشبية المؤقتة التي يصنعها حراس العمارات تحت الإنشاء فوق بقعة خالية من الأرض، يفرشونها بالبطاطين الثقيلة والوسائد القديمة، ويضعون أمامها موقد غاز يمدهم بالدفء والمشروبات الساخنة. تشعر بأنهم يعيشون داخل حلم، ليل ساكن وغرفة ضيقة ونار خافتة وربما رفقة تشاركهم الضحك والحكايات.

في طفولتها انجذبت إلى باب خشبي مغلق على الدوام في الحائط الداخلي لمدخل البيت، تساءلت إلى أين يؤدي هذا الباب؟ الحائط عرضه لا يزيد على العشرة سنتيمترات، ماذا يخفي الباب ولماذا يغلقونه على الدوام وكأنهم يحمون كنزًا؟ تخيلت عالمًا آخر خلفه، عالمًا سحريًّا تعيش فيه عرائسها حياة مختلفة، تتحرك وتتحدث وتقيم الحفلات والأفراح، وتطير في سمائه الأحصنة والطيور العملاقة والتنانين التي تنفث نارًا.

ربما ستترك الكاتبة التي تبحث عن أصلها قليلًا وتبدأ التفكير في الأم نفسها. الأم التي ألقوا بطفلها من الشباك. منذ أن قرأت عن تلك الحادثة وهي تتخيل فتاة بعينها ستطلق عليها اسم مرمر. تعيش في الحي المجاور لحيها. في ذلك المنزل الأسطوري المسمَّى ببيت الجاز. شغلها دائمًا ذلك المثلث الغريب، بيت وكوبانية الجاز ومستشفى الجذام والمقابر التي دفنت فيها عائلتها. مثلث سحري، ربما عليها أن تكتب رواية عن ذلك البيت

وتلك الأم التي تعيش في مدينة تهبط فيها الملائكة كل ليلة من السماء لتأخذ شيئًا من أشخاص مختارين. تأخذ الألم أو الفرح أو الحب أو الراحة أو الحزن. كل شخص يدفع كل ليلة ضريبة وجوده في الحياة، وهي مثلهم ستدفع ضريبة وجودها أيضًا، بكتابة رواية تكشف لها الحقيقة والزيف، لأن معرفة الحقيقة لن تمنحها الراحة، بل ستسلبها حتمًا منها.

الرواية

انقبض بطن يُمنى من الألم فتحاملت على نفسها، نهضت لتعد اليانسون وتأكل أي ساندوتش، عليها أن تحافظ على حياتها لأنها جبانة، ولأنها خائفة من الموت ومن وحدته. هي عاشت وحيدة، تهرب من وحدتها بالأحلام والأفلام والأغاني والمسلسلات، هذا ما أعانها على الليالي الطويلة التي تظل فيها مستيقظة لأنها تسمع بكاء أمها في غرفتها بعد أن ضربها الأب. لا يضربها يوميًّا، ربما كل بضعة أسابيع، أحيانًا ما تحملها أمها وتهرب بها إلى بيت واحدة من صديقاتها وتظل هناك بضع ساعات لا يهتم فيها الأب بالبحث عنها أو التساؤل عن مكانها حتى تعود. لكن في معظم الوقت تكتفي بالبكاء في الغرفة، بينما يهرب الأب إلى الخارج لساعات، ثم يظهر وكأن شيئًا لم يحدث، لا يتحدث أبدًا في الأمر، ولا يعتذر، ولا يبدو شريرًا كما ترى الأشرار في الأفلام، يبدو أبًا فقط، رجل طيب بملامح طيبة وشعر خفيف وشارب كثيف. لم يفعل ذلك؟ لم تعلم قط، لم تخبرها أمها، حتى عندما سألتها مباشرة بعد سنين

طويلة، تزوجت فيها وغادرت إلى بيت زوجها ولم يعد هناك مبرر للكذب، كذبت الأم، اندهشت من افتراءات الابنة على أبيها، قالت إنها خيالية جدًّا، وإنها توهمت كل ذلك. لم يضربها أبوها قط، حتى إنها نادته من غرفته وسألته هل مددت يدك علينا؟ فضحك معتقدًا بأنها تمزح، قال إنه لم يمد يده على ابنته قط.

قال ابنته ولم يقل زوجته، فكيف نسيت هي؟ كيف حذفت من تاريخها أول مرة مد يده عليها أمام ابنته؟ تذكر يُمنى كل تفصيل وكأنه حدث بالأمس، وتذكر أيضًا التصاقها بجدار الصالة، وخوفها الذي لم يتوقف إلى اليوم. رغم ذلك، لم تكرهه. أبوها، الموظف في الضرائب، والذي عاش سنوات طويلة يحاول بكل الطرق ـ الشرعية وغير الشرعية ـ إخراجهما من هذه المنطقة وتلك الحارة «البيئة» كما يقول بوجه مشمئز، نجح بالفعل في ذلك، تحديدًا بعد سقوط مرمر بعام واحد. انتقل بأسرته إلى بيت جديد في عمارة جديدة، عمارة بنيت محل الملاهي القديمة التي كانت تقام كل عام في مولد السيد البدوي. بدت كعمارة انتقالية بين عشوائية الكفور القبلية وناسها المتبلدين وشوارعها الطينية وزحام الأسواق، وبين ميدان المحطة وعراقته وقربه من السيد البدوي ووسط البلد. لكنها لم تشعر أبدًا بالانتماء إلا إلى بيتها القديم الضيق في تلك الحارة الواقعة خارج حدود الزمن. رغم كل شيء، رغم روث الحصان ورائحة الجاز والأغاني الصاخبة

المستمرة والتي لا تعرف مصدرها بالضبط والنسوة اللاتي يراقبنها كلما خرجت من البيت أو عادت منه، والشباب بشعورهم المصبوغة وسراويلهم الساقطة وكلامهم «المطجن». تكره تلك الحارة وهؤلاء البشر المهمشين، تكره صالة البيت الضيقة ببلاطها «الملخلخ» وورق الحائط الفج ومروحة السقف القديمة والدواليب البنية الضخمة، لكنها في نفس الوقت لا تتوقف أبدًا عن العودة إلى ذلك البيت في أحلامها. كل أحلامها تدور فيه، وكوابيسها أيضًا.

أبوها، الذي يتظاهر بمعرفة كل شيء، بصوته الغليظ وكأن بلغمًا يقف دومًا في حلقه، أجبر أمها على مقاطعة عائلتها كلها منذ زواجهما، أحيانًا تأخذها أمها من وراء ظهره لزيارة جدتها أو خالها، والعودة بسرعة كأنها ارتكبت جريمة، لكن الغريب أن أمها لم تندم قط، لا ندمت على إصرارها بالزواج من هذا الرجل في هذه الحارة الحقيرة، ولا بقطعها عن عائلتها والحكم عليها بالوحدة طوال العمر، ولا ندمت على كل الصفعات التي هبطت على وجهها. أو ربما الندم لم يعد مجديًا. ربما علمت أن عليها تحمل نتاج ما اختارته، لمن ستشتكي؟ لزملائها في المدرسة؟ الذين يرونها بعينين بنفسجيتين من اللكمات ولا يعلقون؟ أو للطلاب الذين يخافون منها ومن وجهها الممصوص وكفي يديها النحيلتين جدًّا، مثل يدي هيكل عظمي؟

لا أمها ولا أباها يعلمان أن كل تلك الصفعات واللكمات تهبط عليها هي وليس على أمها، شعرت يُمنى بكل صفعة، وتابعت سقوط يد أبيها على وجه وجسم أمها بالتصوير البطيء، الذي تتحول فيه الحركة إلى سكون، والصوت إلى صمت.

صمت يصاحبهما أيضًا إلى غرفة النوم، عندما تنتهي أمها من البكاء ويعود أبوها من الخارج، ويتركانها في الصالة وحيدة تشاهد التلفزيون أو تتلصص على بيت الجاز من الشرفة. هذا هو روتين نهايات الأسبوع دومًا، علقة، ثم بكاء، ثم صمت طويل تتخلله بعض الأصوات في غرفة النوم، ثم حياة عادية تبتسم فيها الأم ويمزح فيها الأب.

فهمت يُمنى أن الصمت يعيد الأشياء إلى مواضعها، ويمحو الصفعات، والألم والبكاء، لهذا تمسكت به طوال عمرها، هذا الصمت هو ما يحميها، وهو أيضًا ما يدفع زوجها للتأفف منها في السرير لأنها لا تتحدث ولا تتأوه ولا تتلفظ بكلمات مثيرة، تصمت إلى أن ينتهي حتى لو تخيلته رجلًا آخر، رغم أنها مع عشاقها المتخيلين، تصبح امرأة أخرى متخيلة، تجيد الحب، وتثار بالكلمات الوقحة والشتائم الرخيصة.

ينكر أبوها ما فعله، وتنكر أمها ما فُعل بها، لن تفهم البشر أبدًا، يكذبون بمنتهى الصدق، أو ربما لا يدركون فداحة الفعل، يبدو لها أحيانًا أن ثمَّة فجوة كبيرة بينها وبين الناس، هم يرونها خيالية جدًّا وهي تراهم مشدودين إلى الواقع وكأنهم تماثيل أسمنتية.

لم تكن تخيلات طفلة، الخيالات هي ما حمتها من تلك الحقائق. لكنها لم تحمها من العالم، لأن كل تلك القسوة لا يفلح معها الهرب إلى عالم فيلم أو مسلسل، أو دندنة أغنية وهي تسير في الشارع. كل هذه الرومانسية داخلها لكنها تعجز عن حب زوجها وابنتها، وعن حب نفسها حتى، ولا حب الطبيب الذي سلمته جسدها بكل سهولة. هي تحب نفسها المتخيلة وليس تلك المرأة التي تراها في المرآة تحدق بها. لا تعرف تلك المرأة، ليست هذه صورتها الحقيقية عن نفسها، في أحلامها هي امرأة جميلة، بخصر ضيق مثل هند رستم، وعينين واسعتين مثل سعاد حسني، ونبرة صوت حنون مثل شادية، لا تريد أن تعيش الواقع الذي تكرهه. تريد أن تصحو من النوم بجوار رجل يعمل كمصور جوَّال، يعيش في شقة صغيرة، استديو، يبدو أشبه بصومعة سرية، صومعة فنان، على الحائط ملصقات لنساء جميلات، على الأرض كتب كثيرة متناثرة، ثمَّة جرامافون أيضًا، وجهاز تسجيل أحمر ومروحة قديمة. السرير مجرد مرتبة على الأرض، والملابس متناثرة. ستستيقظ من النوم وترتدي (الهايكول) الأسود، وتترك شعرها منسدلًا على ظهرها، شعرها الذي يطير عندما تركب الموتوسيكل خلف حبيبها وينطلقان في شوارع القاهرة. تريد مثل ذلك الحب، حبًّا بسيطًا لا يتطلب الكثير من الكلام ولا الكثير من التضحيات ولا الكثير من العراك

ولا الخوف ولا الألم ولا السخرية ولا المعايرة. لا تريد زوجًا يعود في إجازات شهرية لينام معها ويأكل ويشرب ويزور أمه ويخرج مع أصدقائه ويعتقد أنه بذلك أنهى كل واجباته، دون أن يتذكر أن يمنحها كلمة عطف، أن يجاملها حتى، أن يخبرها بأنه افتقدها أو أنها تبدو جميلة.

تحلم بأن تسافر إلى القاهرة سعيًا وراء شيء خفي، ربما طيف حب. ترى نفسها بفستان أحمر بنقاط بيضاء وشعرها ذيل حصان مرتفع، في الحلم تتحول عيناها إلى اللون الأخضر، وتمتلك بشرة ناصعة البياض وجسدًا ضئيلًا وملامح دقيقة. ستسافر وتقابل رجل أحلامها وتتجول معه في الشوارع، وسيتمشيان على كورنيش النيل وسيسمعان معًا «أمانة عليك يا ليل طوِّل». هذه هي أحلامها المفضلة، مجرد تمشيات ولمحات وأغانٍ وكلام، بلا أي تماس جسدي، أجمل حتى من أحلامها الجنسية، لأنها في معظم الوقت لا تريد أن تمارس الجنس مع أحد، لا زوجها ولا ذلك الطبيب في العيادة، ولا عشاقها المتخيلين. الجنس لا يجلب سوى الألم والأطفال المجهضين والميتين والمتروكين والمنسيين. كما حدث مع مرمر المسكينة، التي رأتها وهي ترتجف أسفل زيزو على كنبة صالة بيتهم المظلمة، رأت كل شيء من الشباك المفتوح، وسمعت شخير زيزو وحشرجات مرمر، حتى ظنت بأنها سمعت عظام البنت المسكينة تتفتت تحت ثقل

جسده القذر. هذا الحيوان القذر، الخنزير كريه الرائحة، والذي لا تزال تراه إلى هذا اليوم كثيرًا جدًّا، كلما ذهبت إلى مكان رأته، حتى ظنت بأنه يطاردها، يريد قتلها لأنها وشت به، وحدث كل ما حدث.

ماذا حدث أصلًا؟ لم يحدث شيء لهذا الحيوان، ظل مرابطًا في مكانه أسفل البيت أو داخله، أو متمشيًا في الحارات والأزقة أو جالسًا في القهوة، بلا ذرة ألم ولا ذنب. لم يعاتبه أحد ولم يقتله أبو مرمر بعد أن اعتقدت بأنه لا بد أن يأخذ جزاءه كما يأخذ الأشرار جزاءهم في الأفلام. لكن الحياة ليست فيلمًا، عليها أن تتذكر ذلك جيدًا كلما عادت بوعيها إلى الواقع، الحياة ليست فيلمًا.

تراه بجوار المزلقان في الكشك الذي يصر على تسميته ماركت، ماركت يناير ثم ماركت مرمر، عندما رأت اسم مرمر على الكشك القذر تمنت لو هجمت عليه، لو خلعت حذاءها وانهالت به على رأسه وطلبت منه حذف اسمها فورًا، لا يستحق أن يحفظ اسمها داخله أو فوق لافتة على كشك صاج، لا يستحق أن يتظاهر بالحزن أو الذنب وهو يرتدي السلاسل الرخيصة ويصبغ شعره باللون الأشقر والأحمر والأزرق ويسير بخيلاء بينما يوصل الشاي والقهوة إلى المحلات المجاورة وكأنه ملك الزمان. لا يزال كما هو، نحيلًا وممصوصًا بعينين غائرتين وشفتين غائرتين، لكن شعره الطويل قصر وخف. لا يزال أراجوزًا، فرقع لوز يتنطط ويتراقص

ويغني بصوت عالٍ، ويضحك غير عابئ بحياة البنت التي راحت، ولا حتى بطفله الموجود في مكان ما لا يعلمه.

رأت يُمنى مثل الجميع مقطع الفيديو للطفل الملقى من شباك المستشفى الجامعي، وعلمت جيدًا من هو، كما علم جميع سكان الحارة، لكن أحدًا لم يتكلم، حاولت إقناع أمها بإبلاغ الشرطة لكن أباها رفض رفضًا قاطعًا مهددًا أمها بالطلاق لو فعلت. لا دخل لنا بهذا، قال بصوته المتحشرج الذي تكرهه وذهب.

لا دخل لنا بشيء، لا دخل لها بشيء، ولا حتى بحياتها التي فسدت، بجسمها الذي لا يطيق أن يلمسه أحد، بتخشبها أسفل زوجها وألمها المستمر وقتلها لأجنة لم يذنبوا بشيء، والرائحة التي لا تغادرها والابتسامة المرعبة التي تمنعها إلى اليوم من الابتسام بطبيعية، في اللحظات النادرة التي تبتسم فيها في الواقع وليس الحلم، تبتسم بنصف فمها، ترفع شفتها العليا بزاوية لأعلى حتى اعتقد الجميع أنها ربما تعاني من تشنجات ما في الوجه، لا تحب الابتسام ولا الجنس ولا الأطفال ولا الناس ولا الحيوانات ولا البيوت. لا تحب سوى الأفلام، سوى تلك الحياة المتخيلة.

المغص المستمر منذ يومين لم يصاحبه نزيف، مجرد قطرات من دماء لوثت الفوطة الصحية التي وضعتها ثم لا شيء، حتى إن الألم يخف، وكأنها لا تبتلع أربع حبات كل يوم وتدس مثلها في مهبلها. لكن تلاشي الألم لا يعني أبدًا الشفاء.

الحقيقة

لا تجيد ثريا شيئًا سوى الزعيق طوال اليوم في الناس..

في زوجها وشقيقاته، في أولادها وسلفتها، في حماتها التي قلما تغادر مكانها على الكنبة المزيتة في غرفتها السفلية، في نسوان البيت كلهن، وفي الجارات وأي شخص يتحرك في الحارة..

صوتها الجهوري لا يناسب ضآلة جسمها، لكن يمكنك سماعه من أول المقابر وصولًا إلى البيت، ربما يسمعه الميتون حتى داخل قبورهم، بالتأكيد يشتكون من الإزعاج المستمر الذي تسببه ثريا طوال اليوم، لكن الجيران لا يجرؤون على الشكوى..

تجرأت جارة ذات يوم وصاحت فيها لتتوقف عن سب الدين للجميع وإرسال الإشارات البذيئة للعيال الأشقياء الذين يلعبون الكرة أو يضايقون الحصان المنهك من الشمس والذباب، فكان مصيرها السحل من شعرها بجلابية البيت من أول الحارة وصولًا إلى كبانية الجاز حيث استطاع الرجال تخليصها من بين يدي ثريا بعد معركة أظهرت فيها شراستها وقاموسها الواسع من الشتائم التي يخجل من نطقها الرجال.

لكن صوتها اختفى يوم رأت بطن البنت تتحرك وأدركت المصيبة السوداء التي وقعت فيها..

كلامها لزوجها بدا غير مفهوم، حاولت الجعير فيه وإخباره بأن أكيد زيزو هو من فعلها لكنها لم تقدر، نطق الأمر يعني الاعتراف به، وهي لا يمكن أن تسامح نفسها على عجزها عن نزع حنجرة زيزو والتمثيل به، سيمنعها الجميع، وستثبت التهمة على ابنتها أكثر. حتى عندما نادتها أم يُمنى إلى بيتها في الصباح التالي للخناقة الكاسحة وأخبرتها بما رأته يُمنى من الشباك، لم تقدر على الكلام. هزت رأسها فقط وغارت الدماء من وجهها فشدت الطرحة أكثر على رأسها وغادرت بعد أن سألتها هل تحتاج أي خدمة منها أو من ابنتها؟ وكأن مرمر قادرة على الحركة، أو أنها ليست مقيدة في سريرها، تتبول على نفسها أحيانًا عندما تنسى ثريا فك قيدها وأخذها للمرحاض، وتأكل مثل الفراخ الدائخة وتسقط مغشيًّا عليها فترات طويلة أو ربما تنام. لا تعرف. بدت ثريا وكأنها تضبط نفسها على وضع استعداد للأسوأ، وربما شعرت أن موت الفتاة هو الأفضل للجميع. لأن كل محاولات نجاة في تسقيطها فشلت. ستموت البنت وسيذهبون جميعًا في داهية. هم ليسوا مثل فتحي ماضي الذي شق بطن عيل في خناقة ورأى الجميع أحشاءه وهي تسقط أمامه، لكنه لم يسجن سوى بضع سنين لأنه يعمل مع الحكومة، يدلهم على العيال

المدمنين أو تجار المخدرات كل فترة ليتمكنوا من القبض عليهم وتسجيل المأموريات لحركات الترقية الجديدة، وربما يدلهم أيضًا على مجرمي السطو المسلح الهاربين في المقابر وما حولها والمختبئين في الشوارع الأشبه بمتاهة بائسة من أزقة وتفرعات مسدودة وحيطان مهدمة وزراعات قليلة. هم ليسوا مثله، سيسجنون جميعًا أو ما هو أسوأ.

ربما يجب أن تموت البنت موتة ربنا..

هي لا تريدها أن تموت، مرمر أكبر أولادها وسندها منذ صغرها إلى اليوم، لم ترَ تلك البنت يومًا حلوًا، تفكر في الجملة وتتحسر على مصيرها، بنت غلبانة نصيبها قليل مثل أمها التي تزوجت من هذه العائلة «السوّ» وعاشت في هذا البيت شبه المهدم. عاشت طوال عمرها في بيت أبيها النظيف والمرتب أمام جسر السكة الحديد. أجمل بكثير من هذه الحارة السافلة. لماذا قبلت الزواج من عوض؟ خدع أبوها بعربة الجاز وشغل المعلمة والفهلوة هذا، وظنت أنها بالفعل ستتزوج معلمًا كبيرًا «يستتها»، لكنه مجرد جوَّال يلف في الشوارع متسولًا مشترين لسائل لم يعد مطلوبًا.

هذه هي حياتها وعليها أن تعيشها حتى تموت. لا توجد خيارات أخرى، هي ليست قوية مثل نجاة، تعمل سبع صنايع في وقت واحد، ولا تهتز عندما يُقبض على رجلها ويُسجن كل هذه

الأشهر. هي لا تملك سوى صوتها العالي وقدرتها الفائقة على ابتكار شتائم تُفقد من أمامها النطق، لكنها لا تستطيع حماية أبنائها من الدنيا، ولا حماية نفسها.

كل من في هذا البيت أموات. لا تستطيع تذكر عدد المرات التي لمسها فيها أشقاء زوجها أو أصدقاؤه الذين يصعدون أحيانًا لتدخين الحشيش في السهرات أو المناسبات لمسات مقززة حتى تبلد جسدها وفقدت شعورها بالقرف. الحياة في هذا البيت سائلة، الجميع مثل كتلة لزجة، عجينة صلصال في يد طفل يكورها ويفردها ويفتتها ويلقيها. ثمَّة شيء كريه.. تشعر دائمًا بأنها عارية، ما يجعل نظراتها مكسورة حتى وهي تسحل امرأة أو تسب رجلًا أو تقف أمام زوجها للومه على قلة رجولته أو تتمحك فيه لتنفيذ طلباتها. انكسار المشاع. لأن البيت ليس بيتًا، هو أقرب لزجاج شفاف يكشف كل شيء. لم ترد على الست أم يُمنى، ليس خجلًا من فعلة زيزو في ابنتها، بل لشعورها بالتضاؤل. وكأنها غير محمية، على البيت أن يخفيها داخله وليس العكس، لكن هذا ليس بيتًا، وهؤلاء ليسوا بشرًا، وهذه الحياة مجرد أيام تمر وتنتهي.

واليوم تتمنى لو تموت مرمر قبلها.. وينتهي الكابوس الذي تعيش فيه منذ ظهرت بطن البنت. تقول نجاة إنها ستتولى الأمر، عليها أن تثق بها، لم تفلح محاولات التسقيط نعم، لكن كريمة الممرضة ستتدخل، وستعيش البنت لأنها في النهاية ابنتهم ولا بد

أن يحموها. لا أحد يفكر في عقاب زيزو، لم يوجه له زوجها اللوم ولا أمسكه وفتح له رأسه أو قطع عضوه الذي يشهره في وجوه الجميع، وهو يجلس أمام نساء البيت باللباس الأبيض الذي تهدل وتهلهل من كثرة الغسيل، أو وهو يخرج عاريًا من حمَّام شقة حامد المواجه لشقتها مفتوحة الباب دومًا. قلة مرجلة.. لكنها لم تنطق أيضًا، قلة مرجلة وقلة نسونة وقلة إحساس بالحياة أصلًا..

بكت وهي تجر البنت في الشوارع المظلمة، بكت وهي تسمع تأوهاتها، وهي تشعر بارتجافة جسمها، بكت والبنت تصرخ من آلام الطلق وهي راقدة مثل دجاجة مذبوحة على أرض الحمَّام، بينما تستند هي بظهرها إلى الباب كي لا يقتحمه أحد عليهن. لكنها لم تبكِ بينما ترى نجاة وهي تقذف الطفل من الشباك، لأنها في تلك اللحظة نظرت إلى وجه طفلتها، وإلى بطنها، وأدركت أنها حية تتنفس. هذه الطفلة هي من تعرفها، هي من أرضعتها وحممتها وضمتها ونامت إلى جوارها، وشمت رائحتها وغسلت شعرها وضفرته وغنت لها أحيانًا، أما هذا الشيء فلا تعرفه. ولا تريد أن تعرفه، من الأفضل للجميع ما حدث، لأن موته سينقذه من الوصم، سينقذه من حياة بائسة وقسوة لا تحتمل. هذه هي العدالة، على الكون أن يتزن، نعم، ستحصل الليلة الملائكة على طفل، بينما ستفقد هي القدرة على البكاء للأبد.

الكاتبة

حكت لها أمها ذات يوم عن فتاة أشعلت في نفسها النار في أول يوم من شهر رمضان، ثم ركضت على سلالم البيت محاولة اقتحام شقتهم، كانت رضيعة آنذاك، أغلقت أمها الباب في وجه الفتاة المحترقة بسرعة ثم عانقت طفلتها وهي ترتجف. أما الفتاة فأكملت تخبطها على سلالم البيت حتى وصلت إلى الشارع وسقطت على الأرض. حاول المارة إنقاذها، لفوها بالمعاطف والبطاطين التي ألقتها الجارات من الشرفات، لكن البنت ماتت قبل أن تصل إلى المستشفى. تحكي أمها الحكاية بنفس الارتجافة التي أصابتها في ذلك اليوم. تشعر أحيانًا أنها قاتلة، لكنها حياة مقابل حياتين، حياة البنت التي اختارت الموت، وحياتها وحياة طفلتها التي لم تجنِ شيئًا.

الفتاة عاملة في البيوت، تخرج كل صباح تاركة أطفالها لتنظف بيوت الآخرين، تمسح الأرض وتغسل الصحون وترتب الأسرَّة وتزيح التراب عن الأرفف والآرشات ومواسير الستائر.

تغسل السجاجيد وتعلقها لتجف على أسوار البلكونات، أحيانًا تعد الطعام أو تجالس أطفالًا لا تعرفهم. ثم تعود آخر النهار لبيتها الفارغ إلا من بضع قطع أثاث وحصيرة وبعض الأوعية الألمونيوم. تطعم أطفالها وتنيمهم ثم تنام لتبدأ كل شيء من جديد. زوجها الذي يأتي كل ليلة قرب الفجر. هو أقرب إلى طيف، لا يفعل شيئًا، لا يضربها مثلًا ولا يستولي على أموالها، لكنه كذلك لا يتحدث ولا يربت على كتفها ولا يشكرها. هل يكفي ذلك لتشعل النيران في نفسها؟ لا تعرف ولا أمها عرفت. تقول إن البنت سئمت الحياة المعادة، اللف في دائرة، أو ربما تعبت من الإهانات، والتحرشات والألم الجسماني والنفسي. ربما وقفت تلك الليلة في شرفة بيت الجيران الذي تنظفه ورأت النساء يسرن في الطرقات، والأطفال يلعبون أسفل زينة رمضان، وسمعت فرقعة البمب وشجار الرجال في آخر الشارع، وأغاني الفوازير تنبعث من البيوت، فقررت فجأة أن تنهي حياتها.

يبدو قرار إنهاء الحياة مفاجئًا مثل قرارها بالتوقف عن الكتابة، مثل محاولاتها تلك لكتابة روايتها الأخيرة، وسكب كل ما تريد قوله فيها، أن تعبر ربما عن استيائها من العالم. ومن أصواته وروائحه وملامح الناس الجامدة وقسوتهم المستمرة. ربما قررت لمرمر ـ تلك الفتاة الصغيرة التي لا ذنب لها والتي ألقوا طفلها من شباك المستشفى ـ أن تشعل النيران في نفسها وكأنها

هي من تفعلها. لم تشهد احتراق الفتاة عاملة البيوت، لكنها تريد أن تشهد احتراق مرمر. لماذا يعبر الناس بالنيران عن اعتراضهم، مثل بوعزيزي، والجندي الأمريكي الذي أشعل النار في نفسه احتجاجًا على قتل الأطفال في غزة. متى عرف الإنسان أن النار وسيلته لذلك؟ هل النيران ستعيد حيوات من يموتون كل يوم؟ هل سيعيد موت مرمر ابنها؟

ما هو الموت أصلًا؟ كيف يحدث؟ وكيف يأخذ شخص قرارًا مثل ذلك في لحظة؟ لن تفهم أبدًا. أن يقتل الإنسان نفسه، أو أن يأخذ روحه بيده، هذه الأسئلة تشغلها، كما حدث معها ذات يوم وهي في طريقها للمول البعيد على أطراف المدينة.

الشوارع ليست ممهدة جدًّا، والظلام لزج يشبه العودة بالزمن، وكأنها انتقلت إلى عصر آخر بلا نور، بلا أعمدة إضاءة، بلا بساطة ضغط زر، فترى.

اضطرت إلى طلب سيارة أوبر لكي لا يخدعها سائق التاكسي في الأجرة، لكن سائقي التاكسي ماكرون ويعرفون الطرق الأسرع، ويجيدون تفادي الكلاب الصغيرة الهائمة في الظلام. سائق أوبر مسكين لا يعرف الطريق، ولم يتوقع أن ينحرف حول الناصية فيصدم كلبًا، جروًا صغيرًا يجري خلف قطيع من الخراف في الظلام. رفعت عينيها من شاشة الموبايل الذي تمسكت به طوال

الرحلة، فرأت الظلام يتموج. سمعت ثغاء خراف وصرخة كلب صغير. شعرت بجسده يرتطم بمقدمة السيارة ثم يبتعد. ورأت أذنَي السائق تحمران. سمعت شخصًا يصيح. ثم لا شيء.

انطلق السائق مبتعدًا ولم ينطق بحرف. لم تقل شيئًا أيضًا، لكنها شعرت بهيكل السيارة البارد يرتطم بصدرها. برد جسمها وازداد الظلام ظلامًا. ثم وصلت إلى النور. فعادت إلى زمنها الحالي.

في تلك الليلة لم تنم.. استعادت كل شيء في مشاهد معتمة، الكلب الذي لم تره، لكنها عرفت من صرخته الخافتة أنه جرو صغير، والضربة التي تلقاها في جانبه، بالتأكيد في بطنه، شعرت بها في بطنه، تخيلت شكله، كلب أصفر بأذن أصغر من أذن، وذيل مبتور، بشعر ناعم وعينين دامعتين، عينين مسكينتين، عيناه تتساءلان لماذا أنا هنا، ولماذا أنا كلب يجري خلف خراف، ولماذا أعبر في الظلام ومن ظلام إلى ظلام؟

في اليوم التالي ذهبت إلى نفس المكان سيرًا على القدمين، الشمس مضيئة جدًّا، لم تعد بالزمن بل بدا أنها تنغرس في الحاضر. بحثت في كل حارة على جانب الطريق، بحثت عن جثة جرو أو تراب متكوم يغطيها، أو جزء فارغ من القمامة الكثيرة، ربما دفنه الرجل الغامض أمس أسفله، أو أنه عاش؟ ربما صدمت السيارة قائمته فقط؟ ربما بات اليوم أعرج لكنه حي. ثم تستعيد

صرخته، والألم في صدرها، وتعرف أنه مات. السيارة قتلته. أو ربما هي من فعلت.

لو أنها رفعت عينيها عن الهاتف، لو أنها تستطيع الرؤية في الظلام.. لصاحت في السائق أن ينتبه، تفعلها كثيرًا عندما تظهر قطة أمام سيارة عابرة، أحيانًا تعيش، وفي بعض الأحيان تموت بين يديها. لكنها تراها وهي تموت، تصدمها السيارة ولا تتوقف. هي تتوقف، وترفعها من وسط الطريق، تمددها على الرصيف وتجلس بجوارها، وتربت على جسدها الذي يبرد شيئًا فشيئًا حتى يتجمد.

هذه المرة لم ترَ الكلب، لم تربت عليه أو تمنحه نظرة أخيرة يغادر معها الحياة وهو يشعر ـ ربما ـ أنه ليس وحده. مات كلب خفي في الظلام، أو ربما عاش.

فحصت تراب الشوارع، وتأملت أكوام القمامة، نظر إليها الناس بدهشة، سألت الواقفين في الأكشاك الضيقة عن كلب ميت، فهزوا رؤوسهم بدهشة. لا كلاب في هذه الشوارع. فقط بشر، أطفال باكون ورجال غاضبون ونساء صامتات وشيوخ منسيون. لا كلاب ولا قطط ولا خراف ولا جثث. ربما توهمتِ صوتًا، وضربةً، وألمًا. ربما هذا صوتها، صرختها، ظلامها.

لكن ثمَّة شيئًا مات... ثمَّة شيء مات في الظلام... هي فقط لا تعرف ما هو..

عليها أن تكتب الرواية لتعرف، ربما لا يجب أن تكتب عن مرمر نفسها، عليها أن تكتب رواية عن امرأة تشعر بأن حياتها كلها مجرد حلم سيئ، لأنها شهدت لحظة موت مرمر بعد أن ألقوا بطفلها من الشباك. ستراها وهي تشعل في نفسها النار ثم تسقط. وستنقلب حياة تلك المرأة، ستعيش واقعًا ترفضه، واقعًا تستسلم فيه لكل ما يُفرض عليها، ثم ستحاول تغيير ذلك بعد فوات الأوان، وبعد أن يصبح لها طفلة يجب أن تضحي من أجلها، أن تنسى نفسها من أجلها، وأن تعيش فقط من أجلها. سيتوجب عليها أن تُنهي حياتها وهي حية، دون أن يكون أمامها خيارات أخرى.

ستكون هذه روايتها الأخيرة، لأنها لم تعد تتحمل كل هذا الزيف، ستكتب حكايات يتداخل فيها الواقع مع الخيال. ثم تترك كل هذه الحياة المزيفة، ستتخلى عن الكتابة بعدها. كما تتخلى أم قاسية وخائفة وحزينة ومسكينة عن طفلها. لتتمكن من العيش.

الرواية

تتعجب يُمنى من تناقض حياتها؛ في المساء بين النساء الجميلات المبتهجات اللاتي يرتدين ملابس ملونة، ويبتكرن لفات طرح جديدة ويتحدثن عن رحلاتهن الفائتة أو القادمة إلى الساحل الشمالي وشرم الشيخ وربما الجونة. تُعرف في العيادة بصفتها أخصائية إزالة الشعر بالليزر وليس طبيبة أمراض جلدية حتى تنتهي من الماجستير، ما يضطرها إلى التظاهر بالاستماع إليهن مثل أي كوافير محترف، لا تختلف شيئًا عن عاملات الباديكير، أو خبيرات المكياج وربما حتى الماشطات في الأزمنة الماضية.

وفي الصباح بين الفقر والمرض والجلود الذائبة أو المتغضنة أو المجذومين الصامتين، في الشوارع المتربة والنساء اللاتي يرتدين السواد، وعربات الكارو وأكوام القمامة والشجر المصفر على جانبي الطريق، ومبنى المستشفى القديم الذي تخاف المرور بجواره، المبنى الذي كان بالماضي سكنًا للمرضى، المسكون بأرواح المجذومين المدفونين أسفله، ثمَّة مقبرة جماعية تحت

المبنى وهذه هي الحقيقة، لم يموتوا بسبب أحداث شغب قام بها المرضى كما تحب الممرضات أن يحكين، بل ماتوا ميتات طبيعية، ماتوا ولم يقبل الناس بدفنهم في مقابرهم، ولم يتسلمهم أحد من الأقارب، فدُفنوا أسفل المستشفى الذي عاشوا فيه.

هؤلاء المتروكون الخالدون، يهيمون ليلًا في المبنى الخالي بحثًا عن العطف. تحكي الممرضات أنهن يقابلن أشخاصًا يطلبن منهن مصافحة أو ابتسامة، ثمَّة أشباح لنساء أيضًا يطلبن عناقًا. البعض ينخدعن بنظرات الحزن والدموع والطيبة التي تطل من الملامح فيمددن يدًا أو يعانقن امرأة، مصافحات باردة وعناق يثير القشعريرة، يفقن بعدها ليجدن الفراغ.

تخاف يُمنى من مقابلة شبح من أشباح المدفونين أسفل المستشفى، لأنها لن ترفض لمسة أو عناقًا، ربما حتى أعجبها الأمر، وربما صاحبتهم إلى أسفل، إلى عالمهم الآخر الذي يهيمون فيه بتلك الحرية. لا تعرف هل لا تزال تصدق في العالم الآخر والروح والجسد؟ أم أن كل الألم الذي رأته في عيون المحترقين، أو الجمود في عيون المجذومين، أو الذنب في عيون آخرين مصابين بأمراض جنسية، أو الخوف في عيون المبتلين بابتلاءات قدرية، جعلها لا تؤمن بشيء؟ الألم المستمر في العالم.. لماذا يستمر رغم أن لا شيء يستمر؟ كل شيء سينتهي، لا يوجد مبررٌ للألم، لا يوجد سببٌ لاستمراريته، ولا سبب

أيضًا لإنجاب الأطفال أو المحبة أو الكراهية أو العمل أو النوم أو الضحك أو المتعة أو تناول الطعام أو صلة الرحم أو مساعدة الآخرين أو علاج المرضى، لأن كل ذلك سينتهي حتمًا في يوم.

سينتهي في يوم.. تفكر دائمًا في اللحظة التي ستموت فيها، ولا تصدق أنها بالذات سيحدث لها ذلك، شهدت الكثير من الموت، منذ احتراق مرمر وهي تراقب الموت، وهي تلمس الأجساد الفارغة من الحياة، وربما تكتب تقارير لأسبابه، وربما تبلغ الخبر للأحباء والأهل والأولاد والآباء والأمهات، لكنها لا تصدق أنها ستموت، تحاول أن تتخيل مشاعرها في تلك اللحظة، كيف ستنسحب منها الحياة؟ هل ستشعر ببرودة جسدها؟ هل ستعلم أنها ستموت، هل ستبكي؟ رأت أشخاصًا يبكون قبل موتهم بلحظات، ولم تفهم هل يبكون لأنهم سيغادرون الحياة أم لأنهم حزينون على أحبائهم؟ هل سيفتقدونهم؟ هل يشعر الميتون بالافتقاد؟ أم أن الافتقاد هو لعنة الأحياء؟

ستموت، وستموت ابنتها، وستموت أمها وسيموت أبوها وسيموت زوجها وسيموت زيزو، سيموت الجميع بشكل عادي، الموت عادي، حتى إنه عابر، ليس كموت الأفلام، ليس الموت لقطات بالتصوير البطيء لأشخاص يرتدون الأسود ويودعون الميت في مقبرة، ولا الموت هو بداية سلسلة من الانتقامات، ولا الموت هو خلاص لبطل من قسوة العالم، ولا هو عقاب

لجانٍ. ولا انهيار رجل يتعرف على جثة حبيبته في ثلاجة مستشفى، ولا موت عاشقة في أحضان حبيبها على شاطئ بحر، ولا حتى لقطة مجمدة على صورة زفاف تبتسم فيها البطلة بعد أن وضعت السم لزوجها في طعامه وتناولته معه. الموت مجرد اختفاء شخص كان هنا، ثم لم يعد كذلك.

أين ستذهب كل خيالاتها؟ كل شخصياتها المتخيلة التي تحيا من خلالها؟ التي تحتمل الحياة بها؟ ستموت معها أم ستتحرر؟ ستتجسد أخيرًا في عالم جديد؟ تتمنى ذلك، تتمنى أن تموت وتترك خيالها خلفها، كل هذه الحكايات لا يجب أن تختفي، خسارة.. خسارة الحب والأغاني والكلام الحلو والوجوه الجميلة، خسارة كل هذا الدفء الذي لا تشعر به في حياتها الحقيقية. محزن أيضًا أن تعيش الحياة في انتظار الموت، ليتها تتمكن من نسيانه، ونسيان تلك اللحظة التي اشتعلت فيها النار في الفتاة فاشتعل قلبها، ليتها لم تقف في الشرفة هربًا من صوت لكمات الأب لأمها، ومن صوت بكاء أمها. لو لم يضرب أبوها أمها لما حدث كل ذلك. لما شهدت موتًا أول، ولما مرت الحياة كلها كما مرت حياتها، وربما لو لم تكن في شرفتها، لما أقدمت مرمر على فعلتها، ربما ترددت لو أدارت رأسها فلم ترَ أحدًا، ربما تراجعت، وتركت علبة الثقاب وصفيحة الجاز وهبطت إلى أسفل لتنام إلى جوار أمها وتنسى، ربما كانت ستنسى فعلًا،

وتغادر البيت والحارة مع أبيها، وتبدأ حياة جديدة، هي لم تعلم أن طفلها لم يمت، ربما لو علمت، لو أن يُمنى أرتها مقطع الفيديو قبل أن تقفز، ربما ظلت إلى اليوم حية مثلها. موت شخص يعادل موت الجميع، مع كل شخص يموت، يموت جزء من الجميع، ربما لهذا تشعر يُمنى أنها وكل من حولها يتحولون يومًا بعد يوم إلى جثث متحركة، كلما شاهدوا صور الموت المستمرة، حركوا الشاشة بأصابعهم ليحدقوا في الدماء والنيران والركام والأكفان دون أن يرمشوا، دون أن تتوقف حياتهم.

عليها ألا تكره زيزو إلى هذا الحد، عليها ألا تشعر بالغثيان كلما لمحته واقفًا في كُشكه، لأنها لا تختلف عنه كثيرًا، لا هي ولا والداها ولا عائلة مرمر ولا الناس جميعًا..

الحقيقة

متى ستأخذ الملائكة الألم وتمنحها شيئًا آخر مقابله؟

هذا الألم لا ينتهي. هذا الألم الحارق الذي غرقت فيه مرمر منذ تلك اللحظة، لحظة أن ألقت عمتها بالطفل من الشباك. نعم، كان طفلًا حقيقيًّا، ليس بشيء، ولا هو سحلية ولا هواء ينفخ بطنها ولا بكاء يملأها من الداخل طوال الليالي التي قضتها مربوطة في السرير، أو مستسلمة ليد عمتها وهي تعتصر جسدها وتجري التجارب عليه. طفل حقيقي، وليس مثل الدمى التي تلعب بها، تملك ثلاث دمى؛ واحدة قماشية قبيحة، خاطتها أمها من بقايا قطن التنجيد اليتيم الذي أجرته لمراتب البيت، ومن فانلة أبيها البيضاء المصفرة. دمية بيدين مصلوبتين إلى الجانبين وقدمين طويلتين، رسمت الأم على المربع محل الوجه عينين مكحلتين وأنفًا وشفتين غليظتين، ثم رسمت خطوطًا سوداء على الرأس من الخلف وجبينها من الأمام. أسمتها ميمي، تصغيرًا لاسمها المصغر أصلًا. لأنهم جميعًا صغار، كل من في بيتها صغار، ضئيلون، مجرد دمى قبيحة بيدين مصلوبتين.

لكنها دميتها المفضلة، تحبها أكثر من الدمية نونو التي اشترتها بكامل عيديتها في العيد الصغير من المكتبة الملاصقة لمزلقان السكة الحديد. نونو دمية نحيلة بشعر أشقر ناعم وعينين زرقاوين، ترتدي فستانًا ملونًا وفي قدميها فردتا حذاء بالكعب العالي. مثل بطلات الأفلام الأجنبية التي يشاهدها عمها. دمية جميلة لكنها بلاستيكية جدًّا، ومبتسمة دومًا، ميمي لا تبتسم لأن أمها لم ترسم لها ابتسامة. هي أيضًا لا تبتسم كثيرًا، لا تذكر شكلها وهي تبتسم، لم ترَ نفسها من الخارج أبدًا تبتسم. لهذا تحب ميمي أكثر، وتجعلها تنتصر في كل معاركها الوهمية مع نونو.

الدمية الثالثة عروس قصيرة من الفخار، حصلت عليها من سبوع حفيد إحدى الجارات الثريات اللاتي يتمكنَّ من عمل سبوع يوزع فيه الملبس والشيكولاتة الملفوفة في ورق سلوفان مع تلك الدمى الخزفية الجميلة. تمثال لفتى يرتدي الشورت وتيشيرت وقبعة ويبتسم أيضًا. أنفه كبير لا يناسب وجهه لكنه جميل، هذا هو الفارس الذي سينقذ ميمي دومًا من مكائد نونو، أحيانًا يتخلى عن الأولى من أجل الثانية، لكنه دائمًا ما يعود لعقله ويعرف الفرق بين دمية حزينة لكنها حنون، ودمية مبتسمة لكنها لا تملك داخلها سوى الفراغ. ميمي طويلة وضخمة ولا تستطيع احتضان أحد، لكنها تمتلئ بالقطن الطري، يمكن أن تنام إلى جوار مرمر دون أن تخدشها، أما نونو فلا تترك سوى علامات غائرة إن حدث ونسيتها أسفل ذراعها عند النوم.

من الغريب أنها لم تسمِّ الدمية الخزفية للصبي. ربما نسيت، وربما اكتفت بكونه ولدًا، لا يجب أن يمتلك اسمًا ليتمكن من الوجود. فكرت في تسميته على اسم عمها زيزو، لكنها لم تعد تحبه. تشعر في أعماقها بأنه السبب في كل شيء، عندما مر من أمام باب الغرفة المفتوحة وهي مقيدة في سريرها بدا خائفًا، نظر إليها لحظة ثم فر، في تلك اللحظة كرهته، لأنها شعرت بجسدها ينتفض وهو ينظر نحوها. بدا وجهه نحيلًا وعيناه تبرزان أكثر للخارج. مثل أقنعة الجمجمة التي يشتريها أولاد عمومتها في العيد ويرتدونها معتقدين أنها مرعبة. كانت مقززة فقط مثل وجه زيزو الذي نظر إليها ثم ركض.

تعتقد أنها تملك قدرة خارقة على تسمية الأشياء بمجرد رؤيتها، رأت الدميتين فظهر الاسمان في عقلها. كما حدث مع الحصان الذي أسمته كيكو، والدجاج الذي تربيه عمتها أحيانًا، تطلق على كل دجاجة اسمًا إلى أن تُذبح أو تباع. والنباتات، أشجار القبور والورد الشاحب. والقطط التي تتمشى بين أرجل المجذومين في المستشفى، والمجذومون أنفسهم الذين يرفضون تبادل الحديث معها، تسميهم في عقلها، سميرة، علي، سوكا، بيبو، سعيد. الأسماء كثيرة على شواهد القبور، وهي لم تفعل شيئًا طوال السنوات الماضية سوى حفظها.

أما الطفل، الذي يقارب في حجمه حجم الدمية ميمي، فلم ترَ وجهه لتعرف اسمه. ليتها رأته فقط.. كانت على الأقل ستعرفه،

ستشعر به، هو الذي عاش في بطنها، وخرج من بطنها. لماذا لم تلمسه؟ لم تشم رائحته، لم تقبله؟ لم تتمكن من النهوض وإلقاء نفسها خلفه، أو هبوط السلالم الكثيرة إلى الشارع لتعرف مصيره. أنهضتها عمتها وأمها بعنف، وألبساها العباءة والنقاب بسرعة بينما تظلم الدنيا أمام عينيها لحظات ثم تعود فترى.. لقطات مقطعة لا تنساها. يد العمة تدفع باب الحمَّام، ظلام، الممر الطويل ولمبة يهتز نورها، ظلام، عاملة تمسك بدلو وتنظر إليهن بدهشة، زحام، رجل يركض، ظلام، ثلاجة مشروبات غازية مضيئة، لافتة مضيئة لمعمل تحاليل، ظلام، قط يختفي أسفل سيارة مركونة، نافذة نصف مفتوحة، رأس عمتها من الخلف، ظلام، أشجار تتحرك إلى جوارها بسرعة، أعمدة إضاءة، نفق مظلم، نافورة قبيحة، ظلام، مزلقان سكة حديد، جبل من القمامة، حصان، سلم مكسر، ظلام..

ظلام تام.. مكتبة سُر مَن قرأ

لكن هذا ليس حلمًا، ليس كابوسًا، وربما أيضًا ليس واقعًا. بدا وكأن كل شيء يخف من حولها، جسمها حتى لا يلمس السرير الذي وضعوها عليه، تشعر بنفسها تطفو، البرودة تصعد من ساقيها إلى أعلى جسمها، عندما وصلت إلى رقبتها شهقت واهتز جسدها، ثبتتها أمها إلى السرير وهي تصرخ، سمعت الكثير من الصراخ، والكثير من الصياح، والخطوات والسعال والشتائم. الرائحة كريهة جدًّا في بيتها، مثل رائحة روث الحصان، غريب

أن تكون المقابر أجمل من البيت، الرائحة هناك جميلة، نعناع وريحان وخضار وهواء. هنا الهواء مكتوم وكأنهم يعيشون داخل زجاجة. توقف جسمها عن الاهتزاز وتمكنت من إدارة رأسها نحو أمها، شعرت بأن هذه المرأة تحبها فعلًا، الدموع تلمع في عينيها وشفتاها ترتعشان. ربما أنقذتها فعلًا، ربما لم تتعمد إيذاءها. أمها طيبة، تقلي لها البطاطس التي تحبها وتدس في فمها كبد الفراخ بمجرد سلقه قبل أن يلتهمه شخص آخر، تحتفظ لها ببطروخ الرنجة داخل رغيف عيش لأنها لا تأكل سواه، وتشتري لها أحيانًا الشيكولاتة الغالية التي تراها في يد يُمنى وهي واقفة في شرفتها. أمها طيبة جدًّا.. كلهم طيبون جدًّا.

هدأت أخيرًا، نظفتها أمها بمساعدة العمة وزوجة العم، ألبساها جلبابًا طويلًا، وأطعماها شوربة لسان عصفور ساخنة، شعرت أنها قادرة على التنفس من جديد، قادرة على هز رأسها بأنها شبعت، قادرة على إغماض عينيها والنوم.

نعتاد الرائحة الكريهة بعد عشرين دقيقة من شمها، هكذا نتمكن من العيش في البيوت حتى لو امتلأت بالروث أو الحزن، بالطعام الفاسد أو الألم، بالأجساد المتعرقة أو بالقسوة، بالعفن أو بالكراهية.

كادت أن تسقط في النوم، لكن شيئًا آخر سقط أمامها، سقط طفلها أمامها مجددًا، كلما أغمضت عينيها رأت الطفل يسقط.

وكأن عينيها تلاحقان جسده وهو يندفع نحو الأرض، لكنه لا يلمسها أبدًا، لأنها تفتح عينيها قبل أن يتحطم فوقها، وتصرخ..

لم تأخذ الملائكة الألم. أخذت النوم ومنحتها بدلًا منه شعورًا جديدًا لم تعرفه من قبل، شعورًا بالفراغ، لا شيء داخلها، كل ما هو داخل جسمها خرج مع الطفل، الدماء، والقلب والرئتان والمعدة والكبد، لم يعد بداخلها شيء سوى الخراب، جسدها مجرد قشرة لخراب فارغ. يتلاشى داخله كل ضوء أو هواء أو طعام أو شراب. ربما لهذا تشعر بأنها لا تمس السرير، لا تمس الأرض التي سارت فوقها بينما تسندها أمها، معلقة بالهواء مثل طفل يسقط بالتصوير البطيء جدًّا، لكنها علمت أن لا أحد يظل معلقًا بالهواء للأبد، ستأتي اللحظة التي تمس فيها الأرض من جديد، حتى لو لم تشعر بها تحت قدميها.

الكاتبة

عجزت رضوى عن النوم، تشعر بأصابعها تؤلمها وتطالبها بالنهوض من السرير وتشغيل اللاب توب والكتابة، أصابعها ترغب في الضغط على حروف لوحة المفاتيح رغم أن عقلها خاوٍ. تحاول الإمساك بفكرة ما لكنها تراوغها، ربما لأنها فكرة مؤلمة؟ حاولت الكتابة قبل النوم فعجزت عن التنفس، لأنها تعرف جيدًا ما ستكتبه، تعرف أن انتزاع الحقيقة يشبه انتزاع الروح، تتخيل انتزاع الروح مثل انتزاع كائن بممسات طويلة متغلغلة في الجسد، انتزاع طويل ومؤلم، نزع بالدماء كما كانت أمها تصف التخلص من شخص ممل أو مشكلة عويصة.

نهضت وفتحت ملف وورد جديدًا، حاولت أن تلخص أفكارها في نقاط تستخدمها بعد ذلك.

١ ـ في الولادة القيصرية، تنام امرأة وتستيقظ لتجد طفلها إلى جوارها، نظيف ودافئ ونائم بوجه لا يزال شبه هلامي بلا ملامح واضحة، تستغربه للحظة، وربما تشعر أنه ليس طفلها. حتى تضمه

إليها وتشم رائحته وترضعه، وحتى يفتح عينيه، وينظر إليها أو يلصق شفتيه بحلمة ثديها. تتألم المرأة بعد الولادة وليس قبلها، لكن طفلها بين يديها يهوِّن الأمر، يجعلها قادرة على تحمل الجرح العميق، وعدم القدرة على المشي أو السعال أو العطس أو تناول الطعام أو النوم. في الولادة الطبيعية تعاني المرأة ساعات طويلة من ألم مثل لكمات أسفل ظهرها، يتسع فرجها ويضيق وتشعر بأنها على وشك ابتلاع العالم ثم لفظه. تبكي وتصرخ وتلهث وتشهق ولا تستطيع التنفس، ثم يخرج منها طفل ملوث بالدماء والسوائل، يضعونه على صدرها فيختفي الألم لحظات، وتشعر فعلًا أنها أنجبت العالم.

٢ ـ في الإجهاض الجراحي، تنام امرأة وتستيقظ لتجد نفسها فارغة ووحيدة، لم تتألم تمامًا، سوى ألم انسحاب البنج، واستخراج لفافة الشاش المدفوسة بين ساقيها، وحقن المضادات الحيوية لعدة أيام. لا تشعر أنها تألمت بما يناسب فقد غير معلن. تحمل داخلها ألمًا أو ذنبًا أو عارًا أو مأساة أو خوفًا. ثم يخرج كل ذلك دون أن تراه، دون أن تتأكد منه، فتشعر أنها استيقظت من حلم. تشعر بعدم توازن يستمر طوال حياتها.

٣ ـ في الإجهاض الدوائي، يسقط الجنين الدقيق في قاع الحمَّام، أو على الأرض أسفل الدش أو في سروالها الداخلي، فترى خوفها كتلة دموية مجسدة، تتخلص منها في دوامات المياه

أو في كيس بلاستيكي تلفه بورق جرائد عديدة، أو بدفنه أسفل تراب أرض فارغة أو وسط أكوام قمامة. تتألم طويلًا، لأيام عديدة، وتنزف دماء كثيرة، وتبكي، بالتأكيد ستبكي، ستتغير هرموناتها مثل أيام الدورة الشهرية أو الحمل وما بعده، لكنها ستشعر بشيء مادي ملموس يمنحها الأحقية في البكاء والألم. يمنحها الأحقية في لوم نفسها، أو كره نفسها. ستكتئب، ثم تستعيد روحها شيئًا فشيئًا. وستعرف أن هذا جسدها وحدها، وأنها قادرة على الحفاظ على حياتها، أنها تستحق الحفاظ على حياتها.

توقفت للحظة وتراجعت بظهرها إلى الوراء لتتأمل ما كتبته، هل الموت واحد؟ أن تشهد موتًا يختلف عن موت خفي مثلًا؟ أن تشهد اختفاء شخص بين يديك، يجعلك تمس الموت فعلًا؟ لكن موت بعيد، مثل موت حبيب في غربة، أو في غرفة العمليات، أو أن تصل بعد انتهاء جنازة. يجعل الميت ليس ميتًا؟

جلست في الشرفة أمامها اللاب توب، تفكر في يُمنى، الشخصية المعقدة التي تطاردها منذ بدأت في كتابة الرواية، حتى اسمها غريب وغير معتاد، اسم عادي بلا شيء مميز، لكنها اختارته على اسم طبيبة هادئة تعيش في بيت قريب وتزورها أحيانًا في عيادتها المخصصة للجلدية. لا تتحدث يُمنى الحقيقية كثيرًا، تبدو دومًا مغلفة بالأسرار، لكنها تهمهم أحيانًا ببعض الجمل، أو الأحداث المرتبطة بمنطقتهما السكنية. تصغرها بعشرين عامًا

ولا تفهم تشبيهاتها ولا إفيهاتها، ولا تتعرف على أسماء الأغاني التي تسمعها رضوى أو الكتب التي قرأتها، لكنها تحفظ كل الأفلام العربية القديمة والحديثة. وتستعين بتلك الأفلام لتوضيح فكرة ما تريد إيصالها، أو تأويل مشهد لتتظاهر بالحكمة.

سرقت اسم الطبيبة وسنها وأفكارها وحبها للأفلام، ومنحت كل ذلك إلى بطلة روايتها، ستكتب عن الواقع والخيال، ستكتب رواية بطلتها يُمنى، وستقص واقعًا بطلته مرمر، المرأتان اللتان تختفيان داخل أحلامها ستخرجان إلى العالم في شكلين مختلفين. يا لها من فكرة مرعبة، أن تختار كل شخصية مكانها، وأن تتبادل الشخصيات والشخوص أماكنهما.

لم تتخيل أن الرواية الأخيرة ستحيرها بهذا الشكل، إلى درجة أنها هي نفسها ستظهر فيها، ستتحول الكاتبة إلى شخصية هامشية في رواية، تنتظر أن تمنحها يُمنى البطلة مفتاح السر في قصة الطفل. وستتحول مرمر إلى حقيقة، هي وعائلتها وبيت الجاز. سينعكس الوضع، البنت التي اشتعلت هي الواقع، والبنت التي رأت هي الخيال.

بدا واضحًا أن يُمنى ومرمر استقلتا عنها، وباتتا قادرتين على أخذ قراراتهما وحدهما. مثل قرار يُمنى الحاسم بإجهاض جنينها، تتحرك يُمنى رغمًا عن إرادتها، لو أنها هي لما جرؤت على تناول حبات الدواء، ستختار الإجهاض الجراحي، لتشعر

بأنها لم تفعل شيئًا ماديًّا، ستنام ثم تنهض وكأنها مرت بحلم. لن ترى الموت أو تمسه.

أما مرمر فقرار موتها محسوم من البداية، لكنها ستختار أيضًا أن تشعل في نفسها النيران وتقفز إلى الأرض، مثل الطفل ستقفز إلى الأرض، ومثله أيضًا لن تمسها.

لماذا تكتب بهذه الشهوة عن الموت؟ اعتادت رؤية الموت وليس الميت. بمجرد رؤيتها للموت يحوم، تهرب. تبتعد قدر استطاعتها عن أي مكان يتجوَّل فيه. تهرب من غرفة الأم، ومن المستشفيات ومن المقابر، وتدير وجهها عن حوادث الطريق. لكنها ذات يوم حوصرت به.

تذكر جلوسها في مقهى بواجهة زجاجية، تكتب حينًا، وتتأمل الطريق حينًا. الطريق الأسفلتي المشبع بدماء أجسام تهشمت فوقه. طبقات من تراب وعوادم ودموع وصراخ. أغلقت اللاب توب لتتابع الطريق، لم تفكر لحظتها في الموت، بل في الحياة، الحياة الجميلة، والزحام والأطفال العائدين من المدارس. ثم رأت البنت والأب. البنت التي ستختفي بعد لحظات، والأب الذي لن يعود أبًا.

لحظة واحدة لم ينتبه لها فيها كافية ليخطفها الموت، دون أن يعلن عن وجوده. لحظة عبرت فيها البنت الطريق لتطير في الهواء ثم تسقط، وتتلاشى. تلاشت أولًا من أمام عينيها، ثم تلاشت

عندما حملها الأب في سيارة محاولًا جذبها من يد الموت. سيصل إلى المستشفى، وسيحاول الأطباء إنعاشها، سيحاولون خداع الموت وإبعاده بالمحاليل والصدمات الكهربائية والجراحة، لكنه لن يبتعد.

لن ترى كل ذلك، لن ترى سوى بقعة دماء ردمها عمال المقهى المقابل بالتراب، حتى لا تخيف زبائنهم فيمتنعون عن الدخول. بقعة دماء حمراء تحولت إلى بقعة شاحبة من تراب فوق أسفلت داكن. بقعة لم تنزل عيناها من عليها، بجوار رصيف منخفض، تمر فوقها السيارات، وتأكلها إطارات الدراجات. بقعة كانت ذات يوم داخل جسد، فصارت الأثر الوحيد المتبقي من طفلة.

ثمَّة لحظات تنتهي فيها حياتك لتبدأ من جديد. يختفي فيها الشخص الذي كنته، ويولد شخص آخر، مثل تلك اللحظة التي لم ترَ فيها الموت جيدًا، لكنها رأت كل ما يشير إليه.

ستكتب عن الفقد غير المرئي، ستكتب عن الموت غير الملموس، وستكشف أمام نفسها مأساتها التي تخفيها بافتراضات غير مؤكدة، لتهرب من الحقيقة، أو ربما لتستبدل حياة أخرى بحياتها. لعلها تعتقد أنها ستتمكن من نسيان رضوى القديمة، لو اكتشفت أن كل ما تملكه ليس لها، وأن حياتها محض وهم، حياتها الحقيقية في مكان آخر أجمل أو أسوأ، لن يهمها ذلك، قدر ما يهمها الهرب من الذكرى، والهرب من اللحظات التي تتجمع معًا كل ليلة أمام عينيها، فتشعر أنها تكاد تهرب من جسمها، من

إطارها. رضوى مثل صورة معلقة على حائط، جميلة لكن يغطيها التراب. تريد مأساة تكتب عنها، بدلًا من مأساة تتمنى لو تنساها. تريد أن تكون فتاة أخرى، لأبوين آخرين، تعيش حياة أخرى لا وجود للكتابة فيها. لأن الكتابة لا يمكن أن تُنسى، لا يمكن أن تضللها الذكريات الكاذبة. عندما بدأت في كتابة الرواية الأخيرة، أدركت جيدًا أنها ترفع طبقات الغبار عن الذكرى، وأنها بتجنبها الواقع وتمسكها بالخيال لم تفعل شيئًا سوى إبرازه أكثر. تتمنى رضوى ألا تواجه الموت، لكنها في نفس الوقت تلقي بنفسها داخله. تتأمل المقابر والشرفات والبيوت والطيور والأطفال والعجائز، ولا تفهم تمامًا قرارات الزمن. يبدو أنها عاشت تتأمل نفسها في انعكاسات صور السيلفي المفلترة على هاتفها، بدلًا من تأمل ملامحها الحقيقية في مرآة واضحة، أو الأهم، بدلًا من تأمل روحها الحقيقية داخلها.

الرواية

فشلت يُمنى في إجهاض الطفل. تعرف ذلك الآن بعد أن استيقظت في اليوم الثالث بلا شيء، لا ألم ولا دماء ولا أي شيء، بالتأكيد كانت العينات «مضروبة»، حتى الأدوية لا يمكن الوثوق فيها. علمت أن الطفل لا يزال بداخلها، يتمسك جدًّا بالحياة وكأنها دائمة. طفل أحمق فعلًا يستحق أن يكون طفلها.

أمامها العديد من الخيارات لكنها لن تتمكن من تكرار الأمر في الحال، سيعود زوجها في الغد، وستعود الطفلة أيضًا، وستحاصرها أمها بالأسئلة، ثم هناك عملها ومواعيد العيادة، سيمر أسبوع أو أسبوعان قبل أن تتمكن من الانفراد بنفسها مرة أخرى، وستعيد الكرة من الألم والقلق والتردد والحزن والذنب والأفكار السيئة. رغم أنها لم تفشل في المرات التي ساعدت فيها مريضاتها على إنزال الأجنة، تعترف بذلك وهي واقفة أمام المرآة تتأمل عينيها المنتفختين ووجهها الشاحب، البنات المجذومات اللاتي يتعرضن للاغتصاب، أو النساء المتزوجات الخائفات من إنجاب طفل مشوه. أو النساء اللاتي حملن من علاقات محرمة،

تساعدهن دون أن تسأل عن شيء، وتمنحهن الدواء الذي تحصل عليه من مندوبي الأدوية مقابل خدمات كثيرة، وكثيرًا ما ساعدت أيضًا لإجراء تدخلات جراحية تحت اسم عملية كحت وتفريغ في عيادات صديقاتها طبيبات النساء، ما دام لا يوجد نبض في هذا الكيس فهي لا ترتكب ذنبًا، بل تنقذ حياة إنسان جاء الحياة فقط ليتعذب.

المجذومات، اللاتي كبرن ليجدن أنفسهن منبوذات من العالم، لا يجدن حتى التحدث، لا يستطعن حكي ما يحدث لهن. تأتي الفتاة وتنظر لها فقط فتفهم ما حدث، ما فعله زيزو في مرمر يحدث كثيرًا جدًّا في بيوت أخرى، بيت الجاز ليس وحده ما يحمل اللعنة والشر، ثمَّة وحش في كل بيت، ثمَّة شخص ينتزع الخير من العالم. لا تستطيع يُمنى أن تنظر في وجوه الرجال في الشارع أو المواصلات أو السوبر ماركت أو المستشفى، لأنها تراهم جميعًا مشوهين، نظرات مشوهة، وأفكار مشوهة، تعرفها من تعليقاتهم على صفحات الفيسبوك، تعليقات متبوعة بوجوه صفراء تضحك حد البكاء، يسخرون فيها من امرأة فازت بجائزة لأنها لا ترتدي الحجاب، أو يسبون فيها أخرى لأنها تحمل ملامح ذكورية أو تمارس رياضة عنيفة، ويشتمن الفنانات إذا انفصلن أو تُوفين أو ظهرن بوجوه منتفخة من البكاء أو بتجاعيد السنين. تعليقات تسب شيخًا لو أفتى بجواز ممارسة الرياضة للبنت، أو سفرها وحدها، أو

عملها في القضاء أو طلبها للانفصال عن الزوج إذا تزوج أخرى أو حتى المطالبة بإرث. تعليقات تشجع شابًّا قتل أخته لأنها أحبت، أو رجلًا ضرب فتاة في الشارع لأنها ترتدي فستانًا قصيرًا، أو شابًّا ذبح طالبة أمام الجامعة لأنها رفضت الارتباط به.

كل هؤلاء الوحوش من حولها، كل هؤلاء القتلة.. لعلها ستنجب قاتلًا آخر، من يتمسك بالحياة بهذا الشكل، من يتشبث برحمها، من يمتص طاقتها هو بالتأكيد صبي. لا تملك حتى القدرة على إجراء جراحي، سيعرف زوجها وستعرف أمها وأبوها وابنتها وأصدقاؤها والممرضات والجميع. الإجراء الجراحي لإجهاض طفل يتطلب تقريرًا بأن استمرار الحمل يشكل خطرًا على الأم، ويتطلب كذلك موافقة الزوج. ثمَّة أزواج يرفضون الموافقة رغم تقارير الأطباء بالخطر. يضحون بحياة امرأة من أجل طفل، هذه حكايات حقيقية ترويها الطبيبات والممرضات كل يوم وهن يتناولن معها الإفطار، أو يجلسن في الأيام الهادئة يتحدثن عن عجائب الكون والقصص الطريفة.

يا لها من قصص طريفة فعلًا! تجعلها تسير في الشارع وهي مطرقة الرأس، تجعلها تغلق حسابها على الفيسبوك، تجعلها تكره أباها أكثر، وزوجها وزملاءها والطبيب الذي يشبه نور الشريف والممثل الآخر الذي نسيت اسمه، وكل الرجال ما عدا أبطال الأفلام والمسلسلات وعشاقها الخياليين. في خيالها، لا يوجد

إنسان سيئ، في خيالها ثمَّة تبريرات كثيرة لشر الإنسان، وعت ذلك عندما تعاطفت مع بطلة فيلم قديم تدبر المكائد لزوجة أبيها الطيبة، ولعمها وزميلاتها في المدرسة، البنت الملائكية تعيث فسادًا في الأرض لكنها تبكي في المساء وتفقد القدرة على النوم، الإنسان لا يمكن أن يكون شريرًا تمامًا، سيملك الجانبين، وسيتطهر من الشر بالنار، كما سيحدث مع الملاك المزيف في نهاية الفيلم، عندما تشتعل فيها النيران وهي بفستان زفافها.

كان عليها أن تفعلها، أن تشعل النيران في نفسها وهي بفستان الزفاف، فكرت كثيرًا في الهرب من الكوافير بعدما انتهوا من تزيينها، فكرت في الخروج ببساطة من الباب وركوب أي قطار متوجه إلى أي مدينة وبدء حياة جديدة. نفس الفكرة التي تفكر فيها اليوم وتتمنى لو تنفذها، لكن كيف تهرب اليوم وهي مثقلة بحمل جديد؟ انتظرت طويلًا جدًّا وبات للجنين نبض تشعر به، بعد أسابيع أخرى سيمتلك عينين، ويدين وعمودًا فقريًّا وأذنين، وسيستمع إلى صوتها وهي تقتله، ولن تتمكن من التحمل.

عليها أن تبتلع بضع حبات أخرى وتنتظر..

الحقيقة

بالنسبة لنجاة، لا يختلف الأمر كثيرًا عن تطويح كيس القمامة من الشباك..

هذا ليس طفلًا.. هذا شيطان خرج من بطن طفلة. تطويحه عمل بطولي، لأنها تنقذ عائلتها، شقيقها وابنته وكل العيال المعلقين في رقبتها في البيت، وزيزو رغم أنه عيل وسخ لا يستحق، وأمها التي كادت تموت قهرًا في الشهور الأخيرة، وثريا المسكينة، التي ليس لها في الطور ولا في الطحين، كلهم وجدوا أنفسهم فجأة في كابوس مستمر بسبب هذا الشيء.

هو شيء طبعًا لأنها لم تنظر في وجهه ولم ترَ ملامحه ولا سمعت بكاءه ولا تعرفه، ليس طفلًا.. تعيد وتزيد لنفسها، وهي تغسل الملابس وتنشرها على الحبال، ثم وهي تعود لالتقاطها، وهي تعد الطعام للعيال، ثم وهي تفرش أرغفة العيش المخضر من العفن بعد أن تبله بالكثير من الماء على أرض الحارة أمام البيت. تشتري العيش الفاسد من الجيران بقروش قليلة، ثم تبله وتفرشه

على الأرض ليجف، قبل أن تجمعه مجددًا وتطحنه وتبيعه إلى محلات الفراخ. طعام غير مكلف يزيد من وزن الفراخ قبل ذبحها وتنظيفها، وثروة صغيرة تتجمع في يديها نهاية كل أسبوع.

والله «بسبس وومن» يا بت يا نجاة..

يمازحها زيزو كلما عاد وش الصبح إلى البيت ورآها تجلس بجوار العيش المفرود على كامل جانبي الحارة لحراسته من السرقة أو دهس العيال له بأرجلهم الحافية القذرة. هي فعلًا صاحبة عقل تجاري جبار، لا بد أن تعيش في عالم آخر، تدير فيه شركة ضخمة وترتدي التنانير الضيقة القصيرة والجواكت المغلقة والأحذية الكعب العالي مثل غادة عبد الرازق في مسلسلاتها. هي مغرمة بها وبقوتها ونظرات عينيها الساخرتين من الرجال والحياة وغباء الناس. لو كانت وُلدت في بيت آخر، وليس بيت الجاز الزبالة، كانت ستصبح حتمًا مثلها، نجاة أيضًا فارعة الطول وتملك حسنة بجوار شفتيها وبحة صوت غليظة و«مايصة» في نفس الوقت، وحاجبين رفيعين ونظرات ساخرة، والأهم عقلًا حاد الذكاء، يجعلها قادرة على إدارة حياتها بعد سجن زوجها. زوجها أصلًا مجرد شرابة خرج، لا به ولا عليه، لا يفعل شيئًا سوى تدخين الجوزة والجلوس أمام البيت للشخط في العيال والنسوان. أما هي فطالعة لأبيها المعلم، تشبهه أكثر من أشقائها الرجال. لو أنها المتحكمة في القاطرة والحصان، والله لامتلكوا

اليوم أسطولًا مثل بقية المعلمين الذين يتعاملون مع المخابز الكبرى وورش الذهب والفضة والمزارع في القرى المجاورة لطنطا، وليس بضعة بائعين غلابة منثورين في الشوارع الفقيرة.

ـ نصيبك كده..

نعم نصيبها أن تجلس ساعات تنتظر العيش أن يجف، ثم تقطعه كسرات صغيرة قبل طحنه وحمله في شيكارة للف به على محلات الفراخ متحملة الرائحة الكريهة والدم الذي يجري مع الماء أسفل قدميها على بلاط المحل، ثم تعود إلى البيت لتخفي المال قبل أن يلهفه واحد من الرجال. هي أيضًا داية على ما قُسم، لكن الأهم أنها معروفة بمساعدة النسوان في تسقيط أجنتهن. في الشهور الأولى حتمًا، أحيانًا بطرق وديعة مثل إدخال عود ملوخية منزوع الأوراق إلى أرحامهن، عود الملوخية هو الأهون، لأنه عود طري ولزج «يتزفلط» إلى داخل الرحم، لكنها أحيانًا ما اضطرت إلى إدخال إبرة تريكو طويلة بعد تسخينها على النار ودهنها بزيت الأطفال، أو لجأت لطرق أخرى أعنف قد تصل للكم البطن مرات متتالية. ولمن تدفع مبلغًا محترمًا، يمكنها دومًا توفير لبوس سحري تجلبه كريمة الممرضة من معارفها الصيادلة أو مندوبي شركات الأدوية لتقحمه بيدها في مهبل المرأة فتبدأ في النزف فورًا، أو بضع حبات تبتلعها على عدة أيام تمرِّضها فيها لأنها لا تقوى على الحركة، وكل شيء بثمنه.

لا تسأل نجاة ولا كريمة النسوة عن أسبابهن للإجهاض، ثمَّة سبب وجيه حتمًا، الإنهاك أو كثرة العيال أو قلة الفلوس أو الفضيحة. لكنها لن تستفيد شيئًا بالمعرفة. ستنفذ ما تفعله ما دامت ستقبض الثمن. لتتمكن في نهاية المطاف من تنفيذ خططها في الانتقال لبيت آخر مع عيالها، وإدخالهم المدارس التي حرمت هي منها. عليها أن تحسن من حياتها كما تفعل غادة عبد الرازق في كل مسلسلاتها. لأنها لا تقل عنها شيئًا، كما أنها أصغر سنًّا وأكثر حماسًا.

لكن الوضع مع مرمر مختلف. لم تتمكن من تنفيذ أي طريقة لتنزيل العيل في بطنها. لم يعرفوا المصيبة سوى والبنت في شهرها السابع، ثم إن البنت ضعيفة جدًّا، لم تتحمل أصلًا إدخال الإبرة سنتيمترات من فرجها، سقطت قاطعة النفس ولم تفق إلا بعد دقائق طويلة فقدت فيها نجاة السمع من صراخ ثريا وشتائمها. جربت أيضًا إعطاءها الحبوب التي جلبتها كريمة لكنها لم تفعل شيئًا، عيل رخم زي اللي جابوه.. لا يريد مغادرة بطن البنت ولا بالطبل البلدي.

لم تجد حلًّا مع كريمة سوى تنفيذ المخطط الأخير، ستصطحبان الفتاة إلى المستشفى لأن كريمة خوفتها من محاولة توليدها في البيت فتفطس البنت من شدة الضعف. على الأقل في المستشفى ستتمكن من إنقاذها لو حدث شيء، ستنقلها إلى العنبر وستعلق لها المحاليل وربما تنقل لها كيسين من الدماء.

لا يجب معالجة مصيبة بكارثة. لو ماتت البنت بين يديها ستروح في داهية، وستنتهي كل أحلامها في الابتعاد عن هذا البيت، وفي افتتاح مشروع كبير لم تستقر عليه بعد، محل لبيع الأعلاف أو قهوة صغيرة في حي جديد يحتاج لمثل هذه الخدمات، أو ربما محل لبيع قمصان النوم للحريم، لأنهن لا يتوقفن أبدًا عن شراء هذه الأشياء التي لا تستسيغها نجاة، حتى إنها باعت جهازها للجارات والبنات الممرضات في مستشفى الجذام وكسبت ذهبًا..

لا بد أن تنتهي أولًا من قصة مرمر، هي لا تريد الاعتراف بأنها تحب هذه البنت الغلبانة أيضًا، الاعتراف بالحب ضعف في عالمها، لكنها تخطط لأخذها معها في حياتها الجديدة، ستعلمها صنعة محترمة، وستقف في محلاتها لتبيع وتتعلم وتكسب، وستصبح مساعدتها مثل البنات اللاتي يساعدن غادة في عملها وفي التخطيط لانتقاماتها أيضًا. البنت ذكية ونبيهة رغم أنها تسرح كثيرًا وتنام على نفسها أمام التلفزيون، ستساعدها على إنهاء هذا الخراء، وستخرج هذا الشيء من بطنها وتلقيه في أي مقبرة..

كل الأجنة التي أجهضتها دفنتها أسفل عتبات البيوت، وأغطية البلاعات وقوالب المجارير الأسمنتية. لو الجنين أكبر، تتسلل به إلى المقابر وتنفح صبي اللحاد بضعة جنيهات ليضعه في قبر مفتوح سيستقبل ساكنه. سيؤنس الميت الجديد في الظلام الأبدي، والله هذا عمل خير، ستأخذين ثوابًا أيضًا يا نوجة.

لذا لم يكن إلقاء هذا الشيء من الشباك صعبًا.. مجرد التقاط وإلقاء، الشباك مفتوح والصخب شديد، سيلتف الجميع حول الجسم الملقى فوقهم لتتمكن من أخذ ثريا ومرمر والمغادرة بسرعة. سيعدن إلى البيت البعيد دون أن يشعر أحد..

في الواقع لم يحدث شيء فعلًا.. مرض وخفت منه البنت، شيء تكوَّن وانتهى، مثل كل الدماء التي تهطل من مهابلهن وتختفي في المرحاض أو تمتصها الفوط ثم تلقى في الزبالة.. ألم تكن أيضًا أطفالًا محتملين؟

نعم.. بالتأكيد.. لا يختلف الأمر كثيرًا عن تطويح طفل يبكي من الشباك..

الكاتبة

لمحت المفتاح في سلسلة مفاتيحها وهي تغلق الباب وتعدل من وضع حقيبة كتفها. كانت في طريقها لإعادة محاكاة رحلة مرمر من بيت الجاز إلى المستشفى الجامعي لتتمكن من تقمص مشاعرها والعودة إلى الكتابة بعد توقف طويل. بدت الحياة لها في الفترة الأخيرة ضبابية، مثل حلم غريب ولزج. حلم يثقل فيه جسدها ويختفي صوتها، لا سبيل للاستيقاظ منه سوى بالمقاومة، سوى بمحاولة البحث عن صوتها واستعادة الشعور بجسدها. لكن شكل المفتاح استوقفها لحظة.

رفعت المفتاح الغريب أمام عينيها. مفتاح عادي، معدني، لا شيء يميزه، ليس مفتاحًا عملاقًا ولا صدئًا ولا مثنيًّا بانبعاج غريب أو شيء يستدعي النظر، لكن نظرها تجمد عليه لحظة. وتذكرت تلك الليلة. ليلة بدت وكأنها حدثت منذ ألف عام وليس بضع سنين. عندما تركه في يدها وهو يتظاهر بمصافحتها بعد حفل توقيع روايته الأحدث. همس لها أن تسبقه إلى شقته، ثم سيتبعها هو بعد قليل.

شقته، صغيرة ومنظمة وكأن ساكنها أنثى وليس رجلًا. برائحة عطرة مثل رائحة منعم الغسيل. السرير مفروش بملاءات نظيفة وناعمة، والسجاجيد طرية، تغوص فيها القدمان. ترتاح في هذا البيت، تشعر بنفسها كما لا تشعر بها في بيتها. حتى اليوم بعد أن باتت تعيش فيه وحيدة، وبعد أن فعلت كل شيء لتنسى، لا تزال رائحة بيته تطاردها، تشمها فجأة وهي في طريقها للمطبخ أو وهي تشعل التلفزيون أو تستعد للكتابة. بيتها الفارغ، المنظم والهادئ، يبدو خاليًا من الذكرى. أو لا شيء به سوى ذكريات مقبضة، مثل ذلك الصباح الذي غادرته فيه مثل المجانين، بعدما دخلت على أمها ورأت المشهد الذي لن تنساه.

رأت النمل يغطي قدم أمها ونصف ساقها، بينما تقبع المرأة في سريرها صامتة لا تشعر بشيء، مستيقظة لكنها لا تشعر بالنمل الذي يزحف على جلدها ويحاول التهامها. ساقها الميتة المتشققة بدا وكأنها انجرحت، فالتم النمل حول الدماء. عرض شائع يحدث لمرضى السكر. لكنها لم تره من قبل، لم تدرك أن النمل قادر على أكل إنسان إلا في روايات ماركيز، سخرت كثيرًا من تلك النهاية المقبضة والمصطنعة، أن يأكل النمل طفلًا. أن يأكل النمل أمها.

كادت أن تصرخ لكنها كتمت صرختها، بينما نظرت إليها أمها بفزع. لم تكن الممرضة قد حضرت بعد، وصار عليها أن تحمل

جسم أمها الذي خف من الحياة والمشاعر، من الكلام والغضب والتعبير والسلام والحب. وتضعه على كرسيها المتحرك وتدفعه إلى الحمَّام. غمرت ساق الأم بالمياه المندفعة من الدوش. فتراكم النمل في دوائر تضيق وتتسع في دوامات على أرض الحمَّام، بينما شهقت أمها من برودة الماء المندفع.

عندما وصلت الممرضة هرعت إليها، عاونتها على تنظيف الجرح المتسبب في كل ذلك، طهرت القدم ولفتها بالشاش، وألبست الأم جوارب طبية، وضعاها في السرير بعد تغيير ملاءاته ودثراها بالغطاء. بدت مسكينة جدًّا. شبح امرأة تكاد تتلاشى. تمنت رضوى لو أنها تتلاشى وهي واقفة على ساقيها، ألا تضطر أبدًا إلى الرقاد على فراش تنتظر. ألا تنتظر أبدًا أي شيء.

تركت أمها مع الممرضة وفرت إلى القاهرة، إلى وسط البلد، سارت في الشوارع ودخلت المكتبات وشربت الشاي والقهوة على المقاهي، ثم ذهبت إلى ندوته في مكتبة قريبة. ابتسم عندما رآها لكنه لم يقطع كلامه. جلست في الصف الخلفي إلى أن انتهى، فاقترب منها وهو لا يزال يصافح قراءه، وهمس لها أن تسبقه إلى بيته.

ذهبت إلى بيته عدة مرات من قبل، لكنه لم يحاول حتى أن يمسَّها. فوجدت نفسها تتساءل متى سيفعل؟ متى سيحاول تقبيلها، متى سيعانقها مثلًا؟ كلما جلس بجوارها قرَّبت كتفها من كتفه حتى

تلمسه، لم تفعل ذلك مع رجل قبله، ربما هي رائحته، أو نظراته المطمئنة، أو نبرة صوته، أو حديثه عن الأدب والكتب والروايات.

في ذلك اليوم، بينما تهرب من مشهد أمها والنمل يغطي ساقها، شعرت بأنها تحتاج إلى حضنه، إلى السكون قليلًا داخله. لذلك، في تلك الليلة نامت معه لأول مرة، رغم علاقتهما غير المصنفة، ما بين صداقة وحب، ما بين انقطاع ووصل، والتي لم تصل قط إلى الفراش. لا تعرف ما الذي حدث بالضبط ودفعها إلى الاستسلام. ربما غوته هي، ربما نظرت إليه ومست بكفها صدره ففهم حاجتها إليه. الصمت، والهواء البارد المتسلل من شباك الغرفة، وشكل الستائر الشفافة وهي تتطاير برقة، كل ذلك جعلها تترك نفسها وتتركه يدفعها برفق. الملاءة ناعمة وكأنها تطفو على مياه، لكنها في اللحظة التالية شعرت أنها تغوص إلى الأسفل، امتصها السرير داخله، أو أنه هو من امتصها داخله. اختفى جسدها في جسده، ثم اختفى هو داخلها.

استعادت ما حدث وهي تتأمل المفتاح الذي لا تزال تحتفظ به فارتعش جسدها. وشعرت بجوع وحشي إلى تلك اللحظة. وكأنها تريد أن تمر بها مرة أخرى، رغم كل ما تلاها من آلام. رغم موت أمها بعد تلك الليلة بخمسة أيام. وبعد اكتشافها بأقل من شهر أن دورتها الشهرية تأخرت.

لم تلحظ تأخرها إلا عندما خلعت ملابسها على أرض الحمَّام ودخلت أسفل الدوش. عندما خرجت رأت النمل يحيط بسروالها

الداخلي. غطاه النمل إلى درجة جعلتها توشك على التقيؤ. أمسكت به بأطراف أصابعها وقربته من عينيها. رأت النمل مثل نقاط سوداء على سائل أبيض لزج غطى باطن السروال. إفرازات بيضاء سميكة لم ترها من قبل. وضعته في كيس بلاستيكي وألقته في القمامة. في تلك اللحظة لمعت في ذهنها فجأة فكرة أن دورتها الشهرية تأخرت. ظهرت الفكرة أمامها كوحي خارجي، هي التي لم تعتد قط حساب أيام دورتها الشهرية، متى ستبدأ ومتى ستنتهي. أدركت وحدها أنها فعلًا تأخرت، وأن شيئًا في جسدها يتغيَّر.

أجرت اختبار الحمل المنزلي في حمَّام مقهى مجاور للبيت، لم تجرؤ على إجرائه في بيتها وكأنها ستلوثه. وعندما ظهر الخطان الحمراوان صرخت صرخة صامتة قصيرة ووضعت يدها على فمها. الحمَّام الضيق اتسع فجأة، شعرت أنها في صحراء كبيرة، الرؤية غير واضحة والعرق يسيل على عينيها ويغلفهما. ظلت مكانها داخل الحمَّام لدقائق مرت مثل سنوات. ثم خرجت. هاتفته فرد بصوت ناعس. قالت بصوت مهتز: «أنا عملت اختبار حمل وطلع بوستيف». فصمت.. صمت لحظات تعرقت فيها حتى التصق التيشيرت الذي ترتديه أسفل المعطف بظهرها.

أخبرها ألا تقلق. سيتولى هو الأمر. لا داعي للذعر. لا داعي للقلق. لم يطلب رأيها، أو يفكر معها في احتمالية ارتباطهما رسميًّا مثلًا. يحاول طمأنتها، لكنه فقط أثار اشمئزازها أكثر، قال إنه سيحل الأمر في غضون أيام.

أيام؟ الأيام بدت مثل سنين، ستنتظر سنين وهي تحمل داخلها شيئًا لا تعرفه، ذعر يلتهمها من الداخل إلى الخارج. ينهشها مثل وحش صغير بلا هيئة واضحة. ثمَّة شيء داخلها، الفكرة جعلت شعر جسمها ينتصب. قشعريرة ساخنة سرت مثل تيار من أعلى ظهرها إلى أسفله. ولأول مرة تشعر بأنها هشة جدًّا. لا شيء، مجرد ذرة متطايرة في شعاع شمس متسلل من شباك. لم تشعر أنها لا شيء عند موت أبيها ولا أمها، ولا كلما استعادت لحظة اعتراف أمها، أو مشهد النمل على ساقها. حزنت، خافت، اكتأبت، تمزق قلبها، انقبض بطنها. لكن هذا الشعور بأنها تمثال زجاجي سينكسر في أي لحظة، جديد عليها.

اتصل بعد يومين قضتهما راقدة في السرير في وضع الجنين غير قادرة على النهوض أو المشي أو الأكل أو النوم. وأخبرها أن تستعد للسفر إلى القاهرة، عليها أن تصل إلى محطة مصر في العاشرة صباحًا، سيمر لاصطحابها بسيارته، عليها أن تمتنع عن الطعام والشراب من منتصف الليل. سيذهبان إلى مستشفى صديق له، طبيب نساء أدرج اسمها ضمن عمليات الكحت والتفريغ في المستشفى. سيدخلان معًا وسيخرجان بعد ساعات قليلة بلا مشكلة. ليس عليها أن تقلق، كرر مرتين.

لم تشعر بالقلق، لم تشعر بشيء أصلًا، ضمت قبضتها فوق بطنها وتمنت لو تتمكن من اختراقها وإفراغها بنفسها، أو ربما تمنت لو

لم تضطر إلى كل ذلك. تذكرت ما قالته لها أمها وهي صغيرة، إنها لم تخرج من بطنها، فأصابتها نوبة هلع استمرت لدقائق، حاولت فيها أن تنظم نفَسَها، وأن تتأمل الموجودات من حولها، وأن تنظر إلى حركة عقارب الساعة في المنبه بجوار الفراش، أو تتتبع الخطوط المتموجة الملونة على لحافها. حاولت سماع الأصوات من حولها، لكن لم يكن ثمَّة صوت سوى صوت تنفسها الثقيل. وكأنها غائبة في فجوة مبطنة. حاولت أن تلمس شعرها، ملابسها، جلدها، غلاف الكتاب على الكومود، تشبثت بملاءة السرير، لكنها لم تتمكن من التخلص من ذلك الشعور، أنها تغوص إلى أسفل، أنها تسقط. أن الأرض تمتصها، وكأنها تسير على رمال متحركة. مضت لحظات تحاول فيها أن تنزل قدميها على الأرض، أن تقف على ساقيها، أن تمشي خطوات نحو الدولاب، وأن تعد حقيبة صغيرة وضعت فيها ملابس داخلية ومنشفة ومناديل معطرة. وضعت أي شيء اعتقدت أنه لازم لرحلتها إلى مستشفى لا تعرف اسمه. ثم جلست في السرير تنتظر الصباح.

ليس أمامها خيار آخر، هي ليست في رواية رومانسية، سيأتي فيها لاصطحابها إلى مكتب مأذون وليس إلى مستشفى مشبوه. هذا هو الواقع، وهذه هي الحياة، وهذا هو الخيار الوحيد أمامها. علاقة استسلمت فيها لدفء جسد رجل، قادتها إلى تلك اللحظة التي تقبع فيها تنتظر رحلة قد لا تعود منها. كتبت رسالة طويلة إلى

صديقتها المقربة تحكي فيها كل شيء، تخبرها إلى أين ستتجه ومع من، وما الذي سيتوجب عليها شرحه لعائلتها المتبقية، ولأصدقائها وقرائها إذا أصابها مكروه. اتصلت بها وطلبت منها ألا تفتح ملف الوورد الذي أرسلته لها على الواتس آب إلا إذا لم تهاتفها حتى مساء الغد. سألتها صديقتها عن السبب بصوت قلق، طمأنتها بأنه لا شيء، مجرد فكرة غير مكتملة لرواية قادمة تريدها أن تقرأها غدًا لأسباب تود الاحتفاظ بها لنفسها.

تستغرب أنها لم تبكِ، لا يومها ولا اليوم وهي تستعيد تفاصيل ما حدث بوضوح لأول مرة بينما تسير في شارع البحر في اتجاه المستشفى الجامعي وتحاول تقمص ما شعرت به مرمر. ربما لأن لا شيء واضحًا فعلًا. كل شيء باهت وضبابي. رأت طائرًا بمنقار طويل وجناحين طويلين يقف فوق فرع شجرة على جانب الطريق، الشجرة بلا أوراق لكنها جميلة، تميل قليلًا إلى اليمين، فروعها ناشفة لكن الطائر يقف عليها سعيدًا، حسدت الطائر والشجرة والذباب والحشائش والقطط والنمل والتراب. فكرت.. من الجميل أحيانًا أن نملك القدرة على الطيران بعيدًا في لحظة، والابتعاد عن كل شيء، لنصبح بعد لحظات في مكان آخر وزمان آخر.

في ذلك اليوم في المستشفى، أرادت فعلًا أن تطير. كادت أن تهرب بينما تستبدل بملابسها رداء الجراحة الأزرق، وتغطي شعرها بغطاء الرأس البلاستيكي. وترقد على السرير الجراحي،

وتفرد ذراعيها إلى جانبيها مثل صليب على الخشبة الموضوعة أسفلها. تضحي بنفسها فعلًا، أو تضحي بجزء منها. فكرت أن تفر قبل أن تغمرها برودة المخدر، أن تجري في الشوارع بالرداء الأزرق المفتوح حتى تتمكن من الطيران بعيدًا، بعيدًا جدًّا، أبعد مما يصل إليه عقلها وهو يغيب بينما تردد الأرقام عكسيًّا..

١٠، ٩، ٨، ٧، ٦..

غابت قبل رقم ٥، في كل مرة تجري فيها جراحة تغيب قبل رقم خمسة، اللوز، الزائدة، عملية لإزالة نتوء في المجرى الأنفي. النتوء يجعل فتحتي أنفها ضئيلتين جدًّا، نفسها مثل خيط رقيق يدخل إلى جسمها. لا تتنفس سوى من فمها، حتى بعد الجراحة، عاد المجرى إلى مكانه وعاد الهواء سرسوبًا ضئيلًا لا يكفيها، تفتح فاها وتعب الهواء لتتمكن من العيش.

هذه الجراحة مثل الجراحات السابقة، إزالة لجسم زائد يمنعها من البلع، من الحركة، من التنفس، هل تفكر وهي غائبة عن الوعي؟ تشعر دومًا بمجرد أن تفتح عينيها بعد جراحة أنها لم تتوقف عن التفكير. اندهشت لوهلة وهي تنظر إلى وجه الممرضة وطبيب التخدير. ثم تذكرت، رأته يقف إلى جوار السرير، يمسك بيدها وينظر إلى وجهها.

التقطت لنفسها صورة، أرادت أن تحتفظ بصورتها تلك أمام عينيها طوال الوقت، من أجل أن تتوقف عن إلقاء نفسها في

دوامات المشاعر الفارغة. تحتفظ بسوار الجراحة في جيب سري بحقيبة يدها، سوار بلاستيكي أزرق كُتب عليه اسمها. فتحت الحقيبة وأخرجته، بدا مثنيًّا ومنطبقًا على نفسه مثل أوراق عينات العطور التي يوزعونها عليها في المولات والشوارع. انمحى الحبر المكتوب به اسمها. لكنه في يدها، ما زال يملك نفس الثقل السابق. الشعور بأنه إن ارتدته، سينطبق على معصمها ويتمسك به بممسات طويلة تنحفر في جلدها، ليظل هكذا مصاحبًا لجسمها في كل لحظة. جسمها الذي انتُزع منه في ذلك اليوم شيء ما لم تشعر به. لم تره، مجرد كيس هلامي ضئيل من الدماء، كيس تافه بلا وزن، لكنه في حقيقة الأمر، انتزع معه جزءًا من نفسها الحقيقية.

ـ وكأن شيئًا لم يحدث.

قالها بينما يرشف القهوة بعد مغادرتهما المستشفى وجلوسهما في بوفيه محطة مصر لانتظار قطارها، لم يعرض حتى توصيلها بسيارته إلى بيتها في طنطا. سألته لم لا يتزوجان؟ قالتها دون أن تفكر، ربما من شعورها البالغ بالإهانة، إهانة لا تستطيع تفسير سببها الحقيقي، خضوعها لعملية جراحية سرية؟ أم تخلصها من شيء ينمو داخلها، أم طريقته في شرب القهوة منتشيًا وكأن بالفعل لا شيء قد حدث؟ لا تعرف فعلًا، ما تعرفه أن الإهانة تضاعفت عندما رفض عرضها، قال إنه لا يستطيع الارتباط بكاتبة، هي لن ترى العالم من خلاله أبدًا، تراه من خلال أشياء أخرى، من خلال

اللغة، والحروف والحكايات والقراء والمعجبين. وهو يود امرأة لا تملك للعالم نظرات عديدة. لا بيت يتحمل كاتبين. لا مكتبين في ذات الغرفة. الكلمات تتداخل، ستكوِّن ما يشبه دوامة تبتلعهما معًا، وهو يود أن يسبح صحبة طوق نجاة، وليس ثقلًا يجذبه معه إلى أسفل.

أنهى قهوته وتركها في المحطة الشاسعة وسط كل هؤلاء الغرباء الذين يركضون للحاق بقطاراتهم، والذين ينظرون إليها بقسوة غير مفهومة، وكأنهم يعلمون ما فعلته. لكنها الآن تتفهمه، كان عاديًّا، هي من اعتقدت بأنه غير عادي، الكاتب أيضًا شخص عادي، هي من تضفي على الكتابة تلك القداسة الزائفة، عرضت عليه الزواج في لحظة خوف، لكنها تشكره على رفضه، لم تكن لتستطيع رؤية نفسها في عينَي رجل رآها في تلك اللحظة الهشة من حياتها. عارية أسفل رداء طبي، بلفة شاش مدفوسة بين ساقيها. وخصلات شعر متعرقة تلتصق بجبينها.

عليها أن تحول كل ذلك إلى كتابة. ستتذكر بالكتابة، وستنسى أيضًا بها، لأن الأفكار المنحوتة على جدار جمجمتها، الذكريات، المعلومات، التواريخ والأسماء، تُنسى عندما تنتقل إلى الورق، عندما يقرأها الجميع، عندما تتحول إلى مشاعٍ رخيص لا قيمة له.

على الكتابة أن تمنحها اليوم الخلاص الذي تتمناه، من كل ما يثقلها ويجذبها إلى الأرض.

الرواية

النساء في العيادة يتحدثن أكثر بكثير من اللواتي يزرن المستشفى. النساء من الطبقات الوسطى العليا والراقية، اللاتي يجئن دومًا لأغراض تجميلية، يمتلكن قصصًا حزينة أكثر بكثير من النساء الفقيرات الصامتات والمجذومات اللاتي لا يعترضن على شيء، لا يطالبن بأدوية إضافية ولا حتى بنظرة تعاطف، فقط الأشباح والنساء الغنيات من يفعلن.

تعتقد يُمنى أن النساء في المستشفى تعودن على الألم. لم يعد الألم شيئًا يثير الشفقة أو التعاطف، بات جزءًا عاديًّا من الحياة، عليهن أن يتعاملن معه، مع النبذ ومع الصمت ومع الوحدة ومع جفاف الحياة. أما في العيادة، فلا يزال ثمَّة أمل في الألم. الاستمرار في الشعور بالألم يولد الأمل في انتهائه. هؤلاء النسوة اللاتي يردن أن يصرن أجمل، بجسد أملس خالٍ من الشعر، ومن علامات التمدد ومن التصبغات تعيسات جدًّا. يردن أن يقدمن إلى الرجال في حياتهن محض خيال، صورًا زائفة لنساء يشبهن بطلات السينما ونجمات الموضة على إنستجرام وتيك توك. يردن بطونًا ملساء

وأثداء مشدودة وفروجًا ناعمة مثل الأطفال الرضع. ووجوهًا خالية من الحبوب والمسامات الواسعة والهالات السوداء.

لا أحد سعيد تمامًا ولا حزين تمامًا. هذا ما تفهمه يُمنى بعد كل الحكايات التي سمعتها، وبعد كل الوجوه العارية التي رأتها أسفل الأقنعة، ينزع الجميع ملابسهن وأقنعتهن تحت يديها، وهي فقط من يملك الصورة الكاملة.

تحب يُمنى أيضًا أن تراقب مريضاتها على حساباتهن، فيسبوك وإنستجرام، وأن تشاهد صورهن المتخيلة عن حيواتهن. السيدة التي تشارك صورًا عاطفية مع زوجها رغم أنها تقابل آخر، والتي تنشر صورًا كاذبة لفتاة أخرى وتدعي بأنها هي، واللاتي يكتبن جملًا تمدح جمالهن على صورهن المفلترة. ثم هناك تلك الكاتبة النسوية التي تدافع عن المرأة وتندد بقولبة المجتمع لصورتها، حتى إنها كتبت منشورًا ذات يوم ضد إزالة شعر الجسد رغم أنها تزور العيادة بانتظام منذ ما يقارب العام لتخضع إلى جلسات الليزر.

تلك الكاتبة التي تعيش على مقربة من بيتها الحالي، ربما على بعد بنايتين أو أكثر، طلبت منها أن تهديها رواياتها فرحبت بحرارة. سيدة في عقدها الخامس غير متزوجة لكنها تحرص على الاعتناء ببشرتها وجسمها، تزيل شعر جسمها كله، وتخضع لجلسات تنظيف للبشرة وتفتيح للهالات السوداء لتظل جالسة في البيت لا تفعل شيئًا سوى الكتابة.

أهدتها الكاتبة في زيارتها التالية رواية لها، قالت إنها رواية تتحدث عن الثورة، لم تفهم يُمنى للحظات أي ثورة، ثم فهمت أنها تقصد ما حدث في يناير ٢٠١١. أجابتها بأنها كانت مجرد طفلة حينها، لا تتذكر شيئًا سوى يوم تنحي الرئيس السابق. لا لشيء لكن لحادث وقع في ذات اليوم. حادث لا يمكن أن تنساه.

فضول الكاتبة شجعها على حكي الحكاية، بينما هي مستمرة في إرسال نبضات الليزر على ساقيها. لم ترها جيدًا بسبب النظارة التي تحمي عينيها من الأشعة، لكنها شعرت بجسدها يرتجف كلما تقدمت في الحكي، حتى ذكرت لها أن البنت دُفنت في مقبرة غرباء لا يعرفونها.

سألتها الكاتبة: دُفنت ليلة التنحي؟ فتاة في الثالثة عشرة؟

ـ نعم.

لم تكمل حديثها، لم تخبرها بقصتها هي، وما حدث لها بعد تلك الليلة، لم تحكِ عن تداعيات حياتها وأفكارها وخيالاتها، لأن الكاتبة نهضت وغادرت قبل أن تكمل نصف ساقها الأخير. يبدو أن القصة أثارت اهتمامها. رغم أنها قصة عادية ومتكررة. لم تسمع قصتها. لكن ماذا ستحكي؟ ستبدو مجرد امرأة مدللة لا ترضى بشيء، لا ترضى ببيتها الجميل وزوجها الذي يكدح طوال الأسبوع حتى لو كان قليل العاطفة، وابنتها السليمة الجميلة الطيبة، وعائلة تحبها وعمل مستقر ومكانة اجتماعية.

ستسألها وسيسألها الجميع، أمها وأبوها وزملاؤها والممرضات والعاملات ماذا تريدين أكثر من ذلك يا دكتورة؟ هل تريدين الزواج من نجيب ساويرس مثلًا؟ ستتغامز الممرضات عليها من خلف ظهرها، وسيقلن الدكتورة الخايبة، تكره زوجها الضابط الوسيم الطول بعرض، وسيتمنين لو عاقبها الله وتركها زوجها لتحصل واحدة منهن عليه.

ماذا تريد فعلًا؟ هي نفسها لا تعرف، ثمَّة شيء يطاردها، وكأنها متأخرة عن موعد، ثمَّة شيء يثقلها دومًا، شيء ناقص، حتى هي لا تعرفه. كل خيالاتها وأحلامها لا تملأ تلك الفجوة في حياتها، ربما تسد فراغها لساعات، لأيام، لكنها سرعان ما تزداد اتساعًا، ستبتلعها يومًا وستختفي تمامًا بداخلها.

ربما لو حكت للكاتبة لتمكنت من تفسير مشاعرها في رواية. ربما عليها أن تهاتفها مثلًا لتخبرها بأنها تحاول التخلص من طفلها، ستحب الكاتبة ذلك، ستكتبه ربما في قصة عن امرأة خائنة تقتل طفلها، أو ربما ستتفهم الموضوع، وتكتب رواية عن الإجهاض غير الشرعي والخطر الذي يهدد حياة النساء، النساء يُقتلن كل يوم لأنهن غير قادرات على التخلص من نتائج زلاتهن، ستتحدث كثيرًا عن الألم والقسوة واضطهاد المجتمع، وستحصل على جائزة الرواية النسوية الأهم، ستكتب القصة السهلة، التي تردد فيها شعارات جوفاء، لكنها لن تتفهم أبدًا

قصتها المعقدة، لن تفهم ما الذي تعنيه حياة امرأة تعيش في خوف دائم، في وهم دائم.

المغص لا يتوقف ولو لدقائق، لكن لم يحدث نزيف بعد. ارتجفت يُمنى أسفل الغطاء الثقيل، وحاولت طمأنة نفسها، سينتهي الأمر، فكرت، وسيطرد جسدها الطفل والدماء الفاسدة كلها، وستنهض لتأخذ دشًّا وتبدل ملابسها وتزيل أي أثر لشرائط الحبوب أو الملابس الداخلية المدماة، وستعد الطعام لزوجها الذي اقترب من الوصول، وستعتذر منه لأنها في فترة الدورة الشهرية، وفي الغد، ستذهب إلى المقابر لتدفن كل تلك الدماء مع الكيس الصغير الذي سيسقط، بينها. ستدفن هذا الطفل المتخيل إلى جوار مرمر، وسيتحول حتمًا إلى طفل حقيقي في عالمها الآخر.

الحقيقة

لم تعد مرمر قادرة على اللعب في المقابر، ولا مغادرة البيت. توقفت عن مشاهدة التلفزيون أو التحايل على عماتها أو أمها للسماح لها بأخذ هاتف من هواتفهن المحمولة للعب. لم يعد لها نِفس إلا للصعود إلى السطح والجلوس بين صفائح الجاز وتأمل السماء، وتبادل النظرات مع يُمنى في البيت المقابل، حاولت يُمنى الابتسام لها ودعوتها لزيارتها لكنها لم ترد، اكتفت بالابتسام والتلويح، ثم الرقود على ظهرها لمراقبة الحمام يطير في مجموعات، تراقب الحمامة التي تتخلف عن مجموعتها، وينقبض قلبها خوفًا من ألا تلحق بالبقية، ثم ترتاح عندما تلتحم بمجموعتها من جديد، يطير الحمام يمينًا ويسارًا، يهبط لأسفل ويصعد لأعلى، قبل أن يعود إلى غيَّته فوق سطح بيت قريب أو بعيد. أما هي فغير قادرة على الصعود والهبوط، لا تريد أن تلمس أرض الحارة مجددًا. الأرض التي سقط فوقها الطفل وتهشم، كما ألقت هي دمية الصبي الخزفية وراقبتها تتفتت قطعًا صغيرة.. صغيرة جدًّا..

الحياة في البيت عادت طبيعية، يلعب العيال على السلم وتتشاجر النساء مع بعضهن، وتشتم أمها الجارات بصوتها العالي وتمارس نجاة أشغالها الكثيرة، ويخرج أبوها كل صباح بالحصان ويعود في المساء، وتحمل عمتاها صفائح الجاز من السطح لحوش البيت أو العكس. ويتسلل زيزو كل ليلة وش الفجر لينام على الأرض بجوار فراش أمه. لكنه امتنع عن السهر في صالة شقتهم. بدا لها كشبح تلمحه فيختفي بسرعة من أمام عينيها، لم يعد قادرًا على النظر في عينيها، وهي أيضًا لم تعد تراه، بهت تدريجيًّا إلى أن صار أقرب لظل معتم يظهر أحيانًا ويذوب في الشمس.

كل ليلة تتأمل الأرض من فوق سطح البيت، وتشعر بالحنين، كل ليلة، منذ تلك الليلة، وهي تشعر برغبة حارقة في ترك نفسها للسقوط. في أن تأخذها الملائكة معها إلى السماء، وتترك بدلًا منها شيئًا آخر لشخص آخر، شيئًا مفرحًا وسعيدًا لأنها لم تعد تطيق كل هذا الحزن. إلى أن جاء اليوم الصامت، الذي خلت الحارة فيه من العيال وصخبهم، والتف الناس حول الشاشات يشاهدون بثًّا مباشرًا مهمًّا أعلن عنه قبل ساعات، حتى أبوها لم يغادر البيت في ذلك اليوم وظل جالسًا على الكنبة أمام التلفزيون بوجه جامد وعينين نصف مغمضتين. وبدا الجميع متجمدين في أماكنهم، مثل تماثيل معلقة الأعين بشاشة، ماعدا هي الواقفة على السطح بسوره المنخفض، ويُمنى الواقفة في شرفة بيتها تنظر إليها وترتجف.

هل فهمت ما هي مقبلة عليه؟ لماذا نظرت إليها يُمنى بخوف رغم أن مرمر ابتسمت لها؟ لم تشعر بثقل صفيحة الجاز وهي ترفعها وتسكب ما بها على رأسها، غمرتها الرائحة قبل أن تشعر ببرودة السائل، لم تكن المرة الأولى التي تسكب فيها جازًا على شعرها، سكبته أمها كثيرًا لتخلص شعرها من القمل وتزيد نعومته كما أخبرتها، الرائحة جميلة جدًّا، شعرت بالدفء رغم بلل ملابسها، دفء سبق حتى إشعالها للثقاب الذي سرقته من جيب معطف أبيها الصوفي.

سمعت هتافًا بعيدًا وزغاريد ورأت الناس يخرجون من البيوت إلى الشارع فلم يعد ثمَّة مجال للتردد، اشتعلت النيران بينما نظرت مرة أخيرة نحو يُمنى، تمنت لو أنها فقط تبتسم لها، أن يبتسم لها أحد قبل أن تهوي إلى الأرض.. لكنها لم ترَ سوى عينين دامعتين، هما ما صحباها في تلك الرحلة القصيرة جدًّا نحو السماء.

الكاتبة

ستقف رضوى إذن أمام المقابر التي تزال بالبلدوزرات تتابع هدم مقبرة والديها، تتابع ابتلاع التراب مختلطًا ببقاياهما، وبالشواهد الرخامية، وأصص الزرع، وجثث السحالي والهوام الميتة منذ دهر، والحشرات الدقيقة ودود الأرض، وكل شيء يمكن أن يضمه قبر، كل ظلام وكل سكون وكل صمت وكل خوف.

في تلك اللحظة فقط، بينما تقف وسط الحشود الباكية، شعرت بأن ثمَّة شيئًا حقيقيًّا أسفل التراب، هؤلاء ليسوا مجرد موتى، ليسوا محض تراب يشبه كل غبار العالم، ثمَّة مشاعر أخرى لا تزول بزوال الحياة، ثمَّة ضريح وذكرى، ومكان يمكنها أن تلجأ إليه في لحظات التعب والثقل والحيرة والألم. هذا القبر الذي أهملته طويلًا من المفترض أن يضمها إلى جوار والديها يومًا، وكانت ستشعر حتمًا بالراحة. في تلك اللحظة بينما يموت والداها للمرة الثانية، أدركت أنهما والداها فعلًا، أنها ابنة حقيقية لوالدين حقيقيين. وأدركت أنها كذلك تفتقدهما.

الرواية

هاتفتها أمها في الصباح لتخبرها بأنهم يهدمون المقابر..

انتفضت يُمنى من فراشها، حاولت استيعاب ما تقوله الأم بينما تنهض مسرعة لترتيب الغرفة وجمع أي شيء يمكن أن يشير لما حدث في الليالي الماضية قبل أن يصل زوجها، اختبار الحمل والأكواب الفارغة والمناديل المكرمشة وبقايا الطعام وشرائط الحبوب، جمعتها كلها في كيس بلاستيكي أسود لتلقيه فوق أي كومة قمامة في الشارع، وارتدت ملابسها بسرعة وغادرت البيت.

أخبرتها أمها أن المقابر تهدم، فسارت بخطوات أسرع نحو المكان، أول ما صادفها كشك زيزو المتهدم بجوار المزلقان، لمحت اسم مرمر على اللافتة المتسخة الملقاة على الأرض فارتفعت الدماء إلى رأسها. لم ترَ زيزو، لكن شعرت به، شعرت بضغط جسده أسفل بطنها، كادت تتقيأ في الشارع لكنها تمالكت نفسها، وأسرعت إلى المستشفى الذي بدا مصفرًّا من التراب المتطاير، البلدوزرات المتفرقة التي تسوي كل شيء بالأرض،

لم تر بائعة الورد ولا النساء في ملابسهن السوداء، ولا الأطفال الذين يركضون على الطريق الترابي، ولا التروسيكلات أو الأحصنة المربوطة بعربات أمام كوبانية الجاز. أسرعت عبر بوابة المستشفى لترى الممرضات واقفات خلف السور الحديدي يتابعن ما يحدث، أخبرنها كل ما يعرفنه بالتفاصيل، حتى مبنى المستشفى القديم سيُهدم، وسيتحول المكان إلى مجمع طبي ضخم، كن سعيدات، لأن هذا يعني عهدًا من الرخاء في مستشفى نظيف يخضع لسيطرة هيئة منظمة، ستمنحهن امتيازات عديدة، وسيتوقفن عن التعامل اليومي مع المجذومين والبؤساء والأشباح والنساء الباكيات دومًا.

ـ حمقاوات.

قالت لنفسها وهي تتابع ما يحدث، وتفكر أن قبر مرمر يُزال الآن، هذه البنت لا تتوقف عن التلاشي حتى بعد الموت، وفكرت كم مرة تلاشت مرمر أمام عينيها؟ مرة عندما اختفت أسفل جسد زيزو، ومرة عندما اختفت من جلبابها المحترق، ومرات عديدة عندما كانت تراقبها عبر الشباك وهي مقيدة في سرير، تبهت شيئًا فشيئًا، ومرة عندما تمزق اسمها مع الكشك المنهدم، ومرة الآن، والبلدورز ينتزعها من الأرض أمام الجميع. هذا القبر الذي يفترض أن تخفي فيه بقايا عار لا يريد مغادرة جسمها، فكرت أن هذه ربما علامة، تدفعها للتفكير قليلًا، وربما أخذ قرار آخر.

تريد أن تعيد مرمر بشكل ما إلى الحياة، لو أن الطفل في بطنها بنت، ستنتهي كل أزماتها، ستتطهر من الشعور بالذنب والخوف، وستتسامح مع كل ما حدث، أو ستنساه. ستنسى حتى أن هذه الطفلة لرجل آخر، لا أهمية كبرى لذلك، لأن الطفل ابن الفراش، وليس شيزلونج الكشف في عيادة أسنان. ربما أخطأت هي في الحساب، ربما عمر الطفل أربعة أسابيع فعلًا، من يعلم؟ الله وحده يعلم.

ستنسى يُمنى.. عليها أن تنسى.. التذكر لا يلائم حياتها، والخيال كذلك لا يلائمها، عليها أن تعود الآن إلى الواقع، وتتوقف عن استعادة الأفلام والمسلسلات وكل تلك الخرافات الرومانسية غير المجدية. ستنسى أيضًا تلك المشاهد التي لا تفارقها لأبيها وهو يضرب أمها، ستقنع نفسها أن كل ذلك مجرد أوهام، أمها نفسها تنكره، من هي لتصر على قصصها البائسة، لماذا تصر فعلًا على تعقيد حياتها بهذا الشكل؟ لا شيء يستحق، لأن المقابر تُهدم الآن، يعني حتى الموت لا يستحق، ليس سلامًا أبديًّا ولا أي شيء، الحياة لمحة تمر والموت مجرد توقف، ضغط على زر pause، سكون بعد صخب. لا شيء يستحق فعلًا، على الجميع أن يفهموا ذلك حتى يتوقفوا عن الحزن، حتى يتوقفوا عن الكراهية، والتنافس، والمعارك، والحروب، والشهوة، والشراهة، والغضب، والجشع، والحسد، والكسل، والغرور. مثلما عليهم التوقف عن التعاطف، وحفظ مشاعرهم لأنفسهم، ليتمكنوا من العيش، شيئًا فشيئًا، يومًا بيوم.

مكتبة
t.me/soramnqraa

عندما عادت إلى البيت في ذلك اليوم، سمعت صوت زوجها وابنتها قبل أن تفتح الباب، فخمنت أنه مر على أمها لاصطحاب الطفلة. دخلت البيت بلا صوت، ووقفت لتراقبهما للحظات وهما جالسان أمام التلفزيون يضحكان على فيلم كوميدي فابتسمت. عائلة سعيدة جميلة، لا بد أن تعترف بأنها محظوظة جدًّا. قد يكون زوجها جافًّا لكنه رجل طيب، أب طيب وزوج مخلص لم يخنها قط، وابنتها، لم تتعبها أبدًا، حتى في أيام الرضاعة ثم التدريب على استخدام الحمَّام ونزع الحفاض، ثم في الدراسة، لم تتعبها إلى درجة أن صديقاتها كن يتعجبن من أدب البنت وذكائها. عليها أن تعترف بأنها محظوظة، وعليها الآن أن تبتسم بينما يستدير إليها زوجها متسائلًا. وعليها أن تنقل له الأخبار السعيدة.

في غرفتها، مست يُمنى بطنها، وشعرت بمرمر قريبة جدًّا، وكأنها تتسرب داخلها، شعرت بها تتخلل مسام يدها ببطء وتسري في جسدها إلى بطنها، تذكرت حذاءها في قدمَي مرمر، الحذاء الذي ارتدته وهي تلعب، وهي تسير في الحارة، وهي تصعد السلالم إلى بيتهما لتغسل الصحون وترتب الغرف، وهي تقفز من السطح. لم يحترق هذا الحذاء، رأت فردة ملقاة على الأرض بعد أن حملوا البنت إلى داخل البيت، ظلت مكانها أيامًا قبل أن تختفي. هذا حذاؤها، ارتدته شهورًا طويلة، ثم تحول إلى حذاء البنت، ثم إلى مجرد شيء منها ظل ملقى دون أن يلمحه أحد. جزء منها لم يلمحه أحد.

في تلك الليلة حلمت بمرمر. تمشي بين شواهد القبور المنتزعة والمكسرة، وبين البلدوزرات وسحب التراب والزحام. تسير وتبتسم وحولها يسير عشرات.. مئات.. الأطفال يتموجون حولها في دوائر تضيق وتتسع، يضحكون ويبكون ويلعبون ويدفعون بعضهم بعضًا مثل كل الأطفال، بينما تسير هي كما كانت دومًا، ضئيلة، هادئة، ووحيدة. حاولت أن تلوح لها لكنها لم ترها، أكملت سيرها بعيدًا حتى اختفت.

عندما تضع يُمنى حملها، ستراقب زوجها وهو يحمل طفلتها الثانية، مريم، وستشعر أن ماضيها كله يذوب، حتى تلك اللحظة التي لم تفارقها قبل ذلك قط، ستتلاشى، ستتحول إلى ضباب مثل الذي يغلف أفكارها بعد الاستيقاظ من النوم ويمنعها من تذكر أحلامها. كل شيء سينمحي، سيصبح ماضيها مجرد مشاهد من أفلام لا تعلق في الذاكرة، وستحل محله مشاهد جديدة، تعيد فيها تكوين حياتها، وتعيد أيضًا الحياة لمن فقدوها.

الحقيقة

في تلك الليلة، عاد زيزو فجرًا إلى البيت. نسي نفسه وهو يرقص ويحتفل ويلف السلك الألمونيوم المشتعل في دوائر لتتطاير الشرارات النارية في الوجوه أمام مبنى المحافظة وسط الحشود الكثيرة.

جميع من في المدينة غادروا بيوتهم ليحتفلوا بتنحي الرئيس. حتى هؤلاء الذين لم يشاركوا بشيء، ولا بمنشور على الفيسبوك بعد عودة الإنترنت. زيزو نفسه لم يتابع الأمر جيدًا، سمع أن بعض العيال «الصيع» يقفون في ميدان التحرير في «مصر» يطالبون بأشياء كثيرة، وأن أقسام الشرطة احترقت، ومبنى الحزب الوطني، وبعض المباني الأخرى التي تبدو مهمة. في طنطا أيضًا أغلقت الأقسام بعد أن غادرها الضباط، بينما سارت الدبابات في الشوارع بين المارة المندهشين. رأى زيزو بعينيه دبابة أمام قسم أول في ميدان الساعة واثنتين أمام السيد البدوي، وواحدة أمام المحكمة في ميدان المحطة، ودبابات كثيرة في شارع البحر وصولًا إلى الاستاد.

الدبابات شكلها مثير، يخرج من سقفها جندي برشاش، كما يرى في الأفلام «الأجنبي». وقف أمامها عدة مرات ليلتقط صورًا لنفسه بموبايله الصيني الجديد، ما جعله يبدو وكأنه واحدٌ من المشاركين في الحدث منذ بدايته. وقف أيضًا مع العيال على النواصي يحملون العصي والشوم ويصرخون في المارة والنساء اللاتي يخرجن للبلكونات بدعوى حماية المنطقة من الشغب. «لجان شعبية» هكذا أخبره محمد عكاشة جاره الطالب في كلية الآداب، أعجبته الكلمة، لجان شعبية، فيها هيبة تليق به، لذا كان سعيدًا جدًّا وهو يقف مع بقية الشباب على الناصية أو يمرون للتأكد من أن الأمن مستتب في الشوارع والحارات المجاورة.

شعر زيزو بأهميته في تلك الأيام، ما أنساه حتى أن البنت الصغيرة أوشكت على الولادة، لم يعرف أن الأمر انتهى إلا عندما أخبرته نجاة منذ أيام بأن ينسى ما حدث ولا يتحدث فيه مرة أخرى، وعندما تسلل إلى بيت أخيه رأى مرمر راقدة على السرير تحت الأغطية الثقيلة فاطمأن أن كل شيء انتهى على خير فعلًا.

لذا رأى أن لا بد من الاحتفال مع الناس أمام مبنى المحافظة، هو كذلك واجب وطني بصفته من الثوار أيضًا. عندما شاهد خطاب التنحي على الشاشة الكبيرة في المقهى، والذي قرأه شخص أصلع أمام الكاميرات هلل فرحًا رغم أنه لم يفهم ما يقصد بكلامه إلا عندما فسر له رواد المقهى الموضوع. ركض في الشارع لا يعرف لِمَ، سيطر الحماس عليه إلى درجة أنه اشترى علمًا قماشيًّا كبيرًا بعشرة جنيهات دون أن يسب البائع

ويتهمه بالنصب، ثم حمل العلم ودار يلف به في الشوارع إلى أن وصل إلى مبنى المحافظة، هناك قابل العديد من المعارف والجيران والأصدقاء الذين لم يرهم منذ سنوات. رقصت النساء أمامه، بمن فيهن اللاتي يرتدين النقاب والخمار والحجاب، بينما أمسك الرجال بمكبرات صوت ليخطبوا في الناس. ووقف باعة غزل البنات وحمص الشام والذرة المشوي وأعلام الوطن على الجانبين، مثل العيد والله.. هو بالفعل عيد.

لماذا بدا له الأمر مثل العيد؟ لا يعرف بالضبط، لم يكره الرئيس السابق، أحبه لأنه حرر سيناء كما يقولون في أوبريت «اخترناه» ولأنه بدا طيبًا جدًّا كلما ظهر ليلقي خطابًا على الشاشة أو وهو جالس في احتفالات تحرير سيناء يستمع إلى المطربين ويهز رأسه، ثم إن الحياة جيدة، يمكن أن نقول عادية، بطيئة بلا مخاطر، يعيش الناس في البيوت ويسيرون في الشوارع ويأكلون ويحلمون ويركبون الأتوبيسات ويذهبون إلى مصالحهم ومدارسهم وأشغالهم. لا تتفجر الأبراج بالطائرات كما يحدث في أمريكا، ولا يقتحم العيال الصيع المدارس بالبنادق ليقتلوا أصدقاءهم ومدرسيهم. ولا تحدث براكين وأعاصير وزلازل سوى زلزال ٩٢ والذي لم يشعر به لأنه كان نائمًا. ربما تحدث بعض الكوارث نعم، لكنها كوارث بيد الله والقدر، ربما لا يأخذ كل إنسان حقه مثل الآخر لكن من قال إن الناس سواسية؟ الشيخ في الجامع أخبرهم أن الناس درجات. زيزو نفسه لم يشعر بقهر

أو ظلم، يعيش عادي.. يعيش اليوم بيومه. لم يدرك أن الحياة ظالمة إلا ذلك اليوم، عندما أخبره علي زهران صديقه الذي يعمل كاشيرًا في محل ملابس بأن الرئيس السابق سرق الكثير من الأموال، أموال الشعب والبلد، وأنه يحتفظ بها في خزائن سرية في بنوك سويسرا، وأن هذه الأموال الطائلة ستعود إليهم، إلى درجة أنه حسب له حصة كل فرد في مصر من المال المنهوب. «سيحصل كل فرد على آلاف الجنيهات يا زيزو، وسنجد وظائف أفضل مما نحن فيه، حتى أنت يمكن أن تتوظف في الحكومة، وستوزع علينا الشقق النظيفة وسنتزوج وننجب ونعيش مثل الناس». لذلك رقص زيزو، وغنى وأشعل سلك الألمونيوم بولاعته وأداره في الهواء لتتناثر النيران. لم يعرف بما حدث لمرمر إلا بعد عودته قرب الفجر إلى البيت.

بعد تلك الليلة، وبعد أن يغادر أخوه عوض بيت الجاز حاملًا من تبقى من أسرته ليعمل غفيرًا لبناية جديدة في شارع الحلو، وبعد أن تشتري نجاة سيارة ربع نقل، وتستأجر شقة في شارع الحكمة الواسع لتشرف على عملها الجديد في نقل بضائع باعة الخضار والفاكهة من القرى المجاورة إلى السوق، وبعد موت أمه ذات ليلة وهي نائمة، ورحيل شقيقه الأكبر مع أسرته إلى الإسكندرية، وبعد نفوق الحصان وتوقف العمل على عربة الجاز، ثم رحيل شقيقتيه مع عائلتيهما بعد توسلات بناتهما للفرار من المكان المشبوه الذي لا يمكن استقبال العرسان فيه. سيظل هو وحيدًا

في البيت المظلم نصف المتهدم. لن يغادره أبدًا. سيظل جالسًا في صالة شقة عوض المظلمة، التي حدث فيها كل ما حدث، يدخن الجوزة ويشاهد الأفلام الأجنبية وقناة الجزيرة التي تعرض محاكمة الرجال الكبار. ثم تعرض انتخاب الرئيس الجديد، ثم تعرض المعارك المتتالية، وانفجارات الكنائس، والموت المجاني في الشوارع، وصور الكتائب المبادة في سيناء، ثم سينزل مجددًا ليقف أمام مبنى المحافظة حاملًا لافتة كُتب عليها ارحل، ثم سيتابع خطاب الرئيس المؤقت، فالرئيس الحالي، وصور اعتصام ميدان رابعة، وفض ميدان رابعة. سيتابع كذلك كل البنايات التي تُزال وكل البنايات التي تُبنى، وكل الجنائن التي تختفي، وكل محطات البنزين التي تنبثق من الأرض، وسيتابع أيضًا شعره الذي يشيب، وجسده الذي ينحف، والحارة التي تفرغ من ناسها، والصمت الذي يلفه كل مساء.

سيبني زيزو بعد تلك الليلة ـ التي أشعلت فيها مرمر النار في نفسها وهوت إلى الأرض ـ كشكًا من الصاج والخشب ملاصقًا لسور المزلقان، سيسميه ماركت شباب ٢٥ يناير، وسيبيع السجائر والشيبسي والعصائر والمياه، وسيصنع الشاي والقهوة للعساكر الواقفين دومًا في كشك المزلقان، ولموظفي السنترال، وللباعة في المحلات المجاورة. ثم بعد سنوات، سينزع اللافتة، وصورة الشهداء، وسيعلق لافتة جديدة باسم جديد، سيسميه ماركت مرمر، لا يدري السبب، ربما لأنه أراد أن يعيد إحياء البنت بشكل

ما رغم كل شيء، وربما لبقايا من ذنب اعتراه في تلك الليلة بعد عودته فجرًا ورؤيته لعائلته كلها مجتمعة أمام جثة البنت المهشمة والتي وضعوها على سرير أمه في غرفتها بالدور الأرضي، وبعد أن دفن جسدها الصغير المحترق في قبر يحمل اسم عائلة أخرى وافقوا على سترها فيه. ربما سيشعر في لحظات عندما ينتهي من تدخين سجائره المحشوة، ويرقد على سطح البيت يتأمل السماء أنه بشكل ما قتلها، ليس بشكل ما، هو حتمًا قاتل، لأنه في تلك اللحظات الصامتة، يسمع صوتها وهي تضحك أو يرى وجهها ويبتسم، ويتذكر أنه أحبها فعلًا كابنته، وأنه دللها وحملها صغيرة جدًّا بحجم نصف ذراعه، لكن الشيطان أنساه كل ذلك في لحظة واحدة. سيتذكر أيضًا أن ثمَّة طفلًا يحمل دماءه في مكان ما من المدينة أو المدن المجاورة، زيزو الذي لم يتزوج ولم ينجب وعاش بطوله في هذه الدنيا بنت الوسخة، له ذرية فعلًا، لكنه لا يعرفها، ولن يعرفها، ولن يتذكرها سوى في تلك اللحظات القليلة التي يُصفي فيها الحشيش مخه ويريه ماضيه كله واضحًا أمام عينيه ليتأمل. لحظاته الروحانية التي بها يفهم أن الحياة لا شيء، مجرد أيام تمر وتنتهي دون أن يحس، أيام سريعة جدًّا لكنها بطيئة، أيام قليلة جدًّا وكثيرة، حياته التافهة التي لا تساوي شيئًا والتي لن يتذكرها أحد.

لم ينل مالًا من الحكومة، وعندما سأل العسكري المرابط على مزلقان السكة الحديد عن مال الثورة ضحك وسعل وأغرقه

بلعابه ونفسه الممزوج بدخان السجائر، وسأله: «هي الحداية بتحدف كتاكيت؟» ضحك زيزو، ضحك حتى دمعت عيناه من فرط السذاجة، وتحسر قليلًا على العشرة جنيهات التي أنفقها لشراء العلم رغم أنه لا يزال معلقًا على جانب الكشك، لم يزله رغم اهترائه بفعل السنين مع بقية الصور والاستيكرات واللافتة القديمة، لم يطاوعه قلبه لأنه في النهاية علم بلده التي يحبها ويشجعها في كأس أفريقيا وتصفيات كأس العالم.

بعد سنوات أخرى طويلة، سيُزال الكشك مع أكشاك أخرى بالبلدوزر، وسيقف ليتابعه وهو ينتزع من الأرض بكل ما حواه، لن يهتم بإفراغه، لأن في نفس اللحظة، سيزال القبر الذي يحوي جسد مرمر، والقبور الأخرى التي تضم أجسام أمه وأبيه وكل الميتين الذين لا يعرفهم أو يعرفهم. سيفهم بأن لا شيء ثابت، وأن كل شيء إلى زوال، حتى البيت الذي عاش فيه، سيتطاير في الهواء إلى أن يتلاشى. سيكون عليه في تلك اللحظة، التي تسقط فيها لافتة الكشك وتتهشم إلى مزق تختلط بالصاج والحلوى والسجائر والمياه والتراب والعلم، أن يذهب مسرعًا لاستلام عمله الجديد في محطة البنزين الجديدة الجميلة التي احتلت محل حديقة الأندلس في شارع البحر. سيقف ليفوِّل سيارات الناس طوال اليوم، وسيقبل القروش القليلة التي يمنحونها إياه، وسينام في ركن صغير داخل المحطة بعد استئذان مديره إلى أن يتمكن من تدبير بيت أو استلام البيت الذي وعدت به الحكومة

لكل من خسر منزله في تلك الحملة، وبعد أن ترفض نجاة بنت الكلب أن يعمل معها سائقًا على واحدة من أسطول سياراتها نصف النقل، ويرفض عوض مجرد فكرة بقائه معه مؤقتًا في الغرفتين اللتين استأجرهما على سطح البناية الفخمة التي يحرسها، بينما تنقطع الصلات ببقية العائلة. «عائلة نجسة». هكذا سيغمغم لنفسه كل ليلة قبل أن ينام داخل بطانية صوف، طواها نصفين، نصف ينام عليه ونصف يتدثر به. سيشاهد بضعة مقاطع فيديو على تيك توك لنسوان يقعن في فخاخ حمواتهن ثم يعدن لينتقمن، ورجال يكتشفون خيانة زوجاتهم، وبنات ترقص وتغني أمام الكاميرات، وسيشعر أن حياته أيضًا مثل تلك المقاطع، ممزقة وحزينة ذات خلفية موسيقية مؤثرة. سيتحسر عندما يتذكر أنه لا يفصله عن عقده السادس سوى بضع سنوات، ولا يزال كما هو، باستثناء الشيب في شعره والتجاعيد على جانبي فمه، سيظل كما هو، وحيدًا وخائبًا، لا يأخذه أحد بجدية. لو أنه يملك بالًا رائقًا لنشر هو الآخر مثل تلك المقاطع واشتهر في غمضة عين، لكنه لم يرد سوى تقضية اليوم بيومه..

اليوم بيومه فقط.. إلى أن ينام ذات ليلة ولا يستيقظ أبدًا..

الكاتبة

أمسكت رضوى بقصاصة الجريدة بين يديها. ورقة مصفرة وناعمة، رائحتها تراب لم يحمها منه الكتاب الذي احتفظت بها داخله. اعتادت قراءتها كل يوم، والتدقيق في كل كلمة مرات عديدة رغم أنها لا تحمل أي تفصيل مهم. ربما يدهشها السرد العادي لحدث غير عادي. امرأة تلقي طفلًا من شباك، فيسجل الأمر بجمل جافة قصيرة لا تهتم بالأشخاص داخلها قدر اهتمامها بإملاء الحروف وقواعد النحو.

اليوم، وبعد أن أتمت كتابة الرواية، لم يعد الخبر مهمًّا إلى هذا الحد، يمكنها أن تمزق القصاصة وتلقي بها إلى القمامة. رغم أنها لا تعلم ما الذي حدث للطفل لكنها لم تعد مهتمة. سيجد حتمًا حياته الجديدة، وسيتحول هو أيضًا إلى شخصية كاملة مثل شخصيات روايتها، ربما لن يعرف أبدًا قصته الحقيقية وتاريخه الحقيقي، لكنه لن يعلم أنه لا يعلم، على عكسها، كل حياتها هي محاولات لاسترجاع الماضي، وإعادة تشكيل الذكريات حتى التافهة منها. كل هذه الكتابة، كل هذا

الألم والتوهان والانعزال والضيق وقلة النوم من أجل أن تعترف بما حدث لها هي، لا يُمنى ولا مرمر ولا أي شخصية أخرى سبق أن كتبتها أهمتها إلى هذا الحد، كل الشخصيات هي رضوى، كل ما تكتبه هو انعكاسات آلامها ومخاوفها ورغباتها وشرها وسذاجتها. عليها أن تعترف كتابة بما حدث. وعليها أن تواجه الألم وتهضمه. أن تعيد تكوين المشاهد التي محاها العقل ليتمكن من الاستمرار. وأن تؤطر كل شيء. وجهها بعد الخروج من المستشفى، عيناه وهو يجلس أمامها، الكلمات التي تبادلاها، المشروبات التي شرباها، رقم كرسي القطار في رحلة العودة، تاريخ اليوم، الساعة التي وصلت فيها إلى البيت، ما ارتدته يومها، ما ارتداه، الشاش الذي أخرجته بصعوبة من بين فخذيها غارقًا في الدماء، حقن المضاد الحيوي التي أخذتها، كل دائرة رسمها الممرض بالقلم الجاف على معصمها أو كف يدها لإجراء اختبار الحساسية قبل الحقن. كل مشهد استعادته كتبت أمامه مشهدًا آخر لحكاية أخرى، لا تشبه قصتها تمامًا، لكنها تتداخل معها.

الكتابة هي الألم، لن تكتب أبدًا رواية سعيدة لأنها لا توجد. الروايات هي التساؤلات الكاشفة، هي حمى راسكولنيكوف بعد قتله للمرابية العجوز، وهي دموع السيد أحمد عبد الجواد بعد موت ابنه، وهي خوف شهرزاد كل ليلة، وهي الصليب المدقوق

على معصم فتاة مسلمة هاربة، وهي الوقوع في حب شبح يختبئ داخل خزانة، وهي مفاتيح بيوت الطنطورية، وهي ذراع خالد بن طوبال المبتورة، وهي السماء التي تحوي قمرين.

عندما انتهت من كتابة روايتها الأخيرة، نامت فحلمت برضوى عاشور، لم تحلم بها من قبل قط، رغم أنها بشكل ما، تسكنها دائمًا. هي دائمًا هناك، في بدايات الأشياء وآخرها. تفكر فيها ولا تحلم بها. قابلتها مرة واحدة في ندوتها الأخيرة قبل رحيلها، جلست أمامها تستمع إليها، ولم تجرؤ بتعريف نفسها أو مصافحتها أو التقاط صورة معها بعد النقاش، لكنها رأتها، وشمت عطرها وتأملت لمعة عينيها وخصلات شعرها وطريقتها في رفع حاجبيها عندما يقول شخص ما شيئًا لا يعجبها.

لكنها في الحلم، نظرت إليها وابتسمت، قالت: الكاتب لا يتوقف عن الكتابة، ستستمرين في الكتابة سواء شئت أم أبيت.

صوتها بغلظته المغربية وطريقة نطقها للكاف والسين والباء. ترتدي تايورًا أبيض من الكتان، وسلسلة ذهبية لامعة. أنحف وأكثر بهاء. خلفهما السماء زرقاء جدًّا، والهواء يمسها بالطريقة التي تحب. لم ترَ نفسها في الحلم، ترى كل شيء آخر سواها.

أحيانًا تتمنى لو تلبستها، لو تحولت إليها ولو للحظات. تريد أن تمتلك نظرات عينيها، وتسريحة شعرها، وابتسامتها، وطريقتها في ارتداء الملابس، والحديث، وعقد الذراعين،

والقدرة على وضع حد حاسم للناس، أو إيقاف من لا يعجبها عن الكلام والحركة بإيماءة.

لماذا لا تستطيع فعل ذلك؟ لماذا تهتم بهذا الشكل؟ ولماذا تحاول أكثر من اللازم، وتضغط على نفسها أكثر من اللازم؟ تريد الكتابة عن كل شيء، عن البيوت التي عاشت فيها، وشكل الشرفات، والحوادث التي تقرأها على الفيسبوك، وقصص المشاكل، والنساء المحطمات، والقطط التي تموت في الشوارع أسفل عجلات السيارات. تؤلمها القطط الميتة لأن سيارة عابرة صدمتها لأنها تشعر بأنها مثلها. امرأة تسير في شارع لتصدمها سيارة في أي لحظة وهي في طريقها للعمل، أو الكتابة أو البحث عن شيء تأكله أو مقابلة الأصدقاء. يؤلمها أنها عندما تموت ستلقى على جانب الطريق وسيمر عليها الناس بعادية دون أن يهزهم جسدها الميت وفكها المفتوح وعينيها المفتوحتين. نفس ما تشعر به عندما ترى النساء العجائز يتسولن في الطريق، شعورها أنها أيضًا واحدة منهن، أو ستتحول إليهن بعد سنوات من الركض خلف لقمة العيش. ستصبح وحيدة مثل مي زيادة، ستتحول إلى امرأة مهمشة، لن تنفعها كل الكتب التي قرأتها وكل الكتب التي كتبتها لأن الكتابة صنعت منها بعد كل ذلك امرأة وحيدة، ويرعبها أيضًا شعورها بأنها ستنسى كيف تكتب نصًا جديدًا كل عامين. عندما تنتهي الأفكار في عقلها، وعندما تعجز عن غزل حكاية متسلسلة، وعن بناء شخصيات جديدة،

ستتحول من جديد إلى مجرد شخص يسير في الشارع دون أن ينتبه إليه أحد.

تطاردها دومًا صورة امرأة تبيع المناديل بجوار المقهى الذي ترتاده، تراها منذ سنوات طويلة، جزءًا ثابتًا من المكان، حتى إن المكان يتغير وهي لا تتغير، بنفس الخمار، والنظارات الطبية الملحومة من المنتصف، والشارب الخفيف أعلى شفتيها، والبطن المنتفخ انتفاخًا غير طبيعي. لا تسمع صوتها، لا تستجدي المارة والسيارات ببضاعتها، فقط تقف ممسكة بعلبة مناديل في صمت، لم تشترِ منها قط، رغم أنها تشتري من جميع البائعات العجائز، ربما لأنها تثير فزعها، لأنها تملك نفس ملامحها، نفس العينين والشفتين والأنف ولون البشرة. حتى إنها ظنت أنها تتوهم وجودها، ربما لا يراها أحد سواها، ربما هي صورة لانعكاسها كما يتخيله عقلها الباطن، كما يحدث أحيانًا مع أبطال الروايات. انعكاس لما ستصير إليه، أو انعكاس لما كانت ستصبحه لولا الكتابة.

تذكُّر تلك المرأة جعلها تفكر بأنها رغبت دومًا في الكتابة عنها، قصة أو رواية قصيرة، حتى إنها كتبت ما يشبه بورتريه الشخصية لها، لا بد أنها وضعته في مكان ما هنا، أو ربما كتبته على الكمبيوتر في ملف الشخصيات الذي تحتفظ به.

استعادت حماسها فجأة وبدأت في البحث عن الملف حتى وجدته، وجدت أيضًا ملحوظات كثيرة، رؤوس أقلام لمواضيع

وأفكار وشخصيات أخرى، ثمَّة رواية جديدة تتشكل أمام عينيها، الفكرة نفسها أجبرتها على الابتسام، الأدرينالين يتدفق في أوردتها، والعالم ينفتح أمامها.

تذكرت الحلم، فشعرت بالأرض أسفل قدميها، والأفكار تنساب إلى ذهنها مرتبة وجميلة، تنفست بعمق، ورائحة عطر رضوى عاشور التي لم تنسها يومًا تفعم أنفها. أغمضت عينيها لثوانٍ، فظل العالم ثابتًا، وكان هذا كل ما أرادته.

طنطا ـ ١٧ أغسطس ٢٠٢٤

مكتبة
t.me/soramnqraa

رواية

في مدينة تُخفي أسرارًا مؤلمة، تتشابك حيوات ثلاث نساء يحملن جراحًا عميقة. رضوى؛ الكاتبة التي تبحث عن الخلاص بين سطور كلماتها، ويُمنى؛ الطبيبة التي تواجه واقعًا قاسيًا وقراراتٍ تترك ندوبًا لا تُمحى، ومرمر؛ الطفلة البريئة التي سُلبت طفولتها قبل أوانها. جريمة إلقاء طفل حديث الولادة من شبَّاك مستشفى في طنطا تُلقي بظلالها على أرواحهن، كاشفةً عن هشاشة الحياة وقسوة القدَر.

«بيت الجاز»؛ رواية متعددة الأصوات، ترصد معاناة المرأة في مواجهة الألم والخسارة، والتضحيات التي تُجبَر على تقديمها في مجتمع يُحاول إخفاء عاره. رحلة مؤثرة بين الصمت والأسرار، بحثًا عن معنىً للوجود في عالم مليء بالتناقضات. فهل سيجدنَ طريقًا للخلاص والشفاء، أم ستظَل جراحُ الماضي تُطاردهنّ؟

نورا ناجي؛ روائية مصرية، من مواليد طنطا سنة ١٩٨٧. تخرجت في كلية الفنون الجميلة. صدرت لها ست روايات، منها: «بنات الباشا»؛ التي وصلت إلى القائمة القصيرة لجائزة ساويرس، و«أطياف كاميليا»؛ التي وصلت للقائمة القصيرة لجائزة ساويرس، والفائزة بجائزة يحيى حقي، و«سنوات الجري في المكان». كما صدر لها كتاب «الكاتبات والوحدة»، والمجموعة القصصية «مثل الأفلام الساذجة»؛ التي فازت عنها بجائزة الدولة التشجيعية.

مكتبة
t.me/soramnqraa

تصميم الغلاف
عبد الرحمن الصواف

دار الشروق
www.shorouk.com